PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

امرأة في الظلال

جمع أطراف ثوبه.. ووضعها في فمه وأخذ يهرول من «السوق الصغير»... وانعطف في «زقاق البرسيم» واستمر يهرول بكل قوته وهو يتلفت إلى الخلف، يلقي النظر على الصبية الذين راحوا يجرون خلفه، وترددت النداءات وراءه.. وصياح الصبية .. «على أولك».. «يا وجه النحس».. «على أولك يا دلة مخروقة» «يا شيشة بلالي..» «يا قدر بلا غطا..».

كان يتألم ويتمنى لو أن في استطاعته التوقف.. ومعاقبة هؤلاء... الأشرار وإيقافهم عند حدهم ولكنهم كثيرون، وخشي الإيذاء.. فاستمر مهرولاً في اتجاه «المسفلة».. ووصل إلى قهوة «الكونكار» فهي المكان المناسب للاختفاء، والابتعاد عن هؤلاء الأشقياء.. الذين يلاحقونه.. ويزعجونه بنداءاتهم المتكررة والقاسية وحتى أصحاب المحلات التي كان يمر عليها لم يسلم من ألسنتهم.. وتساؤلاتهم عن أطفاله الأربعة وعن النحس الذي يلاحقه بلا ذنب جناه فما حدث قضاء الله وقدره.. ثم ما لهؤلاء الفضوليين وما له.

ووضع رأسه بين كفيه.. محاولاً أن يصم أذنيه عن النداءات التي سمعها.. لقد آلمه الصبية.. وأزعجوه فهم يظنونه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مجنوناً.. لا يفهمون ما فيه من ذهول.. وشرود بعد أن توالت عليه كوارث الحياة ومحنها ومصائبها وبدلاً من مواساته أخذوا يتسلون به.. ويسخرون منه وليس له غير أمرين لا ثالث لهما.. فإما أن يقف ويصطدم بهم.. ويتحمل ما ينتج عن ذلك من مشكلات.. وتجمع الفضوليين. أو أن يهرب من وجههم. ويبقى بعيداً، وتساءل في أسى ومرارة إلى متى أبقى أعاني من هذا الضياع وهذا الظلم الذي يسحقني من الداخل، ومن هذا المجتمع الظالم الذي لا يرحم..؟

إنهم يستغربون ذهوله.. ويتسلون بالدوامة التي يعيش فيها، حتى الكبار منهم.. لا يتورعون عن التعريض به، بين وقت وآخر.. ما أقسى هذه المعاملة.. وما أشد ألمها على نفسه.. والعجيب أن هناك المئات ممن يعانون من الذهول.. ولكنهم في مأمن من المجتمع لأن مركزهم الاجتماعي.. يحميهم ويستر عيوبهم... فلا يجد هؤلاء الأشقياء غير أمثاله من الضعفاء.. يسخرون منهم... وترامى إلى مسامعه صوت الصبية.. وقد أقبلوا مرة أخرى ينادون. «على أولك.. من تحت الجدر».. «يا دله مخروقة».. «يا شيشة بلالي».. «يا وجه النحس». وفجأة سمع صوت «فرامل» سيارة تقف فجأة، كادت تدهمه وهو يجتاز الطريق الرئيسي وصرخ قائدها وهو ينطلق بعيداً.

ـ «أصحى يا شيخ من نومك، بلاش امتحان..»

ابتسم في مرارة، وفي نظراته تسليم المخطىء ثم دلف إلى شارع جانبي.. كان يحمل «الزنبيل» في يده وهو يجر قدميه..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والقلق يستبد به.. ويحاصره.. ويتعقب روحه. ويطاردها في عمق الذات.. تنعكس على صفحة وجه.. أخاديد الحزن.. شقوقاً.. تقلصات قاسية تتحدث عن عمق مأساته وشدة معاناته ولا تسعفه رغبته في البكاء.. وفجأة اكتشف أنه فقد رصيده من الدموع.. ترك بصره يتجول حوله.. فقد اختار مقهى لا يعرفه فيه أحد.. لقد سئم أسئلة الناس وسئم الجواب عنها.. هو هوذا يقاوم، بمشقة، الرغبة في عدم العودة إلى البيت.. ولكن ماذا بعدها؟ لا بد أن يعود..

فالمأساة مأساته.. وعليه أن يتحملها وحده، وأن يواجهها وحده وأن يستوعبها وحده.. الأولاد الأربعة.. والزوجة التي ذهبت ومعها السعادة إلى ظلام القبر، وتركت في روحه التعاسة كالوصمة التي لا تزول.

هذا المجتمع عجيب، إنه مزيج من البساطة المتناهية والتعقيد النفسي، فيه الطيبة.. والخير.. وفيه القسوة والظلم.. تملأه السخرية والعفوية في وقت واحد.. وتحكم تصرفاته.. مصادفات وتشاؤم.. وتفاؤل حسب الطالع.. وتسيطر على حركته غوغائية.. لا ضوابط لها في بعض الأحيان، وويل لمن يقع فريسة للغوغائية.. أو يصطدم بها فهي كالسيل.. تعرف معه البداية.. من الصعب أن تدري.. أبعاد المصير.. وحتى عندما يهدأ.. تكون الأنفاس منه قد هدأت.. واستوى كل شيء على شكل مسطحات.. وقطع متناثرة.. من الصعب أن تعني شيئاً واضحاً.. وقد غاص في جوف الأرض.. أو تبخرت أجزاء منه في طريقها إلى السماء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وضع صبي المقهى الشاي أمامه على المنضدة ثم تراجع. . مضى إلى غيره يضع أمامهم ما طلبوا. . أما هو فقد ترك بصره يرافق الصبي ويتتبعه. . ثم انتبه إلى الحقيقة. . إنه لا يريد الشاي. . إنه في حاجة إلى إنسان. . أي إنسان يتحدث إليه. . يبثه همومه. . يشكو له حزنه فقد آلمه. . هذا الظلم. . وأزعجه هذا التشرد،الذي يكاد يفرض عليه الهرب من البيت ومن الحارة ومن كل ما حوله ولكن إلى أين؟ . . وماذا يفعل بهؤلاء الصغار؟

مد يده. . ورفع فنجان الشاي إلى فمه، وأخذ يحتسي ما فيه، أما نظراته، فقد كانت تجوب الشوارع شاردة، تتفحص ما فيها من رجال. . ونساء. . وأطفال. . وعربات (الكارو) وسيارات الأجرة. العالم كله. . يجري، وهو وحده الذي يقف بأفكارهِ عند اللحظة الحرجة. . اللحظة الخطرة، فتبرز أمامه الحادثة المفجعة، ويتصور زوجته أم صالح ويدها على زر الغسالة الكهربائية،فيصعقها التيار في أقل من ثانية. . حيث سقطت بلا حراك جثة هامة.

في صباح ذلك اليوم. . أعدت له طعام الافطار،وداعبت الأطفال،وتحدثت طويلاً في مرح وسعادة. . وعندما هم بالخروج أسرعت بإحضار «الغبانة» ووقفت تودعه بابتسامة حب. . لكنه لم يخرج. . لقد توقفت الغسالة فأسرعت تعيدها إلى الحركة، وهي تردد الشكوى من فسادها وضرورة شراء غيرها. . وفجأة،هوت على الأرض بعد أن صعقها التيار. . واندفع الأطفال نحوها، فأسرع يبعدهم عن الجسد الملقى بلا حياة. . وكان يتمنى لو أن أطفاله لم يقدر لهم رؤية هذا المشهد المروع. . فقد ظل عالقاً بأذهانهم. . وسبب لهم الكثير من الهواجس والكوابيس وظل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعيش الواقعة بكل تفاصيلها.. تجرها ذاكرته كل ساعات حياته.. وتعاوده.. آلام الذكريات جديدة.. فهي الزوجة الثانية، التي يفقدها بعد زوجته الأولى،التي توفيت في حادث سيارة.

اكتشف أنه قد شرب كل ما في الإبريق من شاي.. فنظر إلى ساعته.. فقد أزفت ساعة العودة إلى البيت.. ولما أحس بثقل همومه.. التي سبقته تعدو إلى الشارع، ود من أعماقه لو أن الطريق يطول ويمتد ولا ينتهي أبداً.. ولكن، ها هو أمام دكان «الهليكة»، ذلك الرجل الطيب الذي حفظ مأساته عن ظهر قلب، وعاشها بدمه وأعصابه.

ـ السلام عليكم يا أبو حمزة.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. كيف حالك يا أخي؟

غمغم أبو صالح في صوت كسير:

ـ الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

ـ ماذا تريد اليوم؟

ـ عشاء لأربعة ولي؟

رفع أبو حمزة صوته ينبه ولده حمزة القابع في الداخل في انتظار الأوامر.. وبدأ يعد الطلب بينما كان الحديث يدور بين أبيه وأبو صالح:

ـ الحق يا أخي أنها مشكلة.

ـ مشكلة عويصة.. لقد أصبحت في حيرة من أمري.. ولا أدري ماذا أفعل.. إنني أقضي الليل ساهراً، أجيب طلب من يريد أن يشرب ومن يريد أن.. وأن.. وأن..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان يقول، وحركة يديه تعبر عن المطالب التي لا تنتهي، ثم أطرق ثانية وأضاف:

ـ ولا أفرغ من تلبية طلب، حتى يفاجئني طلب جديد، وإذا أصبح الصباح.. فأهيء طعام الفطور وأكواب اللبن، وأساعد هذا على ارتداء ثيابه ليذهب إلى المدرسة وذاك.. وتلك.

وأخذ يعيد حركة يديه جيئة وذهابا، والرجل يومىء برأسه متابعة لحديثه، وتوقف فجأة ورفع وجهه نحوه وقال:

ـ لم لا تتزوج يا أبو صالح؟

تأمل الوجه الوديع الطيب، وشعر بالأسف العميق من أجله، ثم قال:

ـ من تقبل زوجاً يعول أربعة يا أبو حمزة؟.. من يا أبو حمزة؟ وبعد أن دفنت زوجتين؟

ـ حاول يا أخي وليساعدك الله.. جرب..

ـ تجربة مقضي عليها بالإخفاق.. لا داعي لها.. يكفيني ما أعانيه..

كان حمزة قد انتهى من إعداد الطلب، ووضعه في كيس سلمه له، فتناوله شارداً، وهم أبو صالح بالتقاطه منه، لكن أبو حمزة تشبث به، وأرمش بعينيه الكليلتين من خلف نظارته السوداء وهو يهمس باهتمام..

ـ تزوج لتسعد نفسك وأولادك..

ضحك لأول مرة منذ فقد أم الأطفال.. ضحك من طيبة قلب الرجل وقال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ما أظن امرأة في الوجود تقبل الزواج من رجل له أربع مشكلات حية.. وسمعة سيئة..

لم ييأس.. وذكره بصديقهما سليم.. وأن له ابنة.. مضى عليها مدة طويلة لم تتزوج، وقد تقدم بها العمر.

ـ أتوافق على أن أستطلع لك الأمر؟.

ـ حاول وأشك في النتيجة.

وبعد أن تناول الكيس.. هم أن يتحرك.. فاستوقفه «أبو صالح» وكأنه تذكر شيئاً.. وظن «أبو حمزة» أن الرجل قد رجع عن عزمه.. استمع إلى حديثه بالاطمئنان.. فإذا به يقترح أن يلقاه بعد صلاة العشاء ليذهبا معاً إلى بيت سليم. وأنهى الرجل اقتراحه بقوله «خير البر عاجله» ولم يتردد أبو صالح في قبول الاقتراح.. وتواعدا.. وظل.. في خوف من اللقاء.. وتهيب لحظة المواجهة وكان يتمنى لو أن «الهليكة» أعفاه من الذهاب.. وحاول أولاً أن يجس النبض. قبل أن يواجهه فهذا الرجل من طبعه الاستعجال في الأمور.. وأحس بأن «لا بد مما ليس منه بد».

رحب سليم بهما، ترحيباً حاراً لصلتهما الوثقى القديمة،فهما من سكان الحي القدامى،وليس في زيارتهما له ما يلفت النظر.. وبدأ «الهليكة» الحديث كما يجب.. وتكلم عن متاعب «أبو صالح» مع الأطفال الأربعة.. وكان ينظر إلى أبو صالح نظرة يظهر عليها الرثاء والألم،وهو يتابع حديثه ثم قال «بصدق لا حل لمشكلته إلا بالزواج» وهنا اعتدل الهليكة.. ولما أحس بأن الفرصة مواتية قال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لقد جئنا من أجل هذا.. يا سليم.. جئنا نخطب «فاطمة».

وبعد أن غمر المجلس صمت مطبق.. استأنف قوله إنه يسعده أن تكون ابنته «فاطمة» هي صاحبة هذا الدور الكريم.. وليعتبر مشكلته قد حلت.. فالرجل محل تقديره من زمن ولن يجد لابنته خيراً منه.. لكن عبارته كانت تبدو ثقيلة، وكأنه يكره نفسه على الحديث.

انحدر أبو صالح بعد أن ودع صديقه نحو بيته، وهو غارق في طوفان المشاعر.. لا يستطيع أن يحددها.. تيارات غريبة من الأحاسيس متناقضة المشاعر والأفكار المتباينة.

هل هناك.. بصيص أمل يحدوه للتفاؤل.. وتنهد بحسرة وقال، أخيراً سوف تنتهي متاعبه.. سوف تحل في البيت زوجة تحمل عنه المسئولية، وسيكون للأطفال أم جديدة...

ودخل البيت.. وهم أن يلقي بالخبر إلى أطفاله.. لكنه رأى أن يتريث.. فهو لا يعلم بعد كيف تسير الأمور وخشي أن تذهب آماله وأحلامه عبر الرياح وكره أن يمني الأطفال بشيء.. وهو يعلم تعلقهم بأي بصيص من الأمل.. فهم يحسون بمتاعب أبيهم.. قسوة الحياة عليه في الخارج ومشكلات البيت بدون امرأة ترعاه وتدير شئونه...

وهذا المجتمع القاسي الذي لا يكف عن التعريض والسخرية.. وكره «أبو صالح» أن يقول شيئاً للأطفال ومضى إلى سريره.. يجتر همومه في المساء، ومر على غرفة الصغار وأسدل عليهم الغطاء ورنا ببصره إلى السماء.. وظهر القمر منيراً في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جوف الليل.. يسطع بنوره في أرجاء السماء.. وأحس «أبو صالح» برغبة في النداء والدعاء اللهم اجعله آخر الأحزان.. وعوضني وعوض هؤلاء الصغار خيراً.. يا ربي.. وسالت قطرات من الدموع وبللت لحيته.. فأسرع يجففها.. خشية أن يراه الصغار.

وحانت منه التفاتة إلى الصغيرة «عزة» فوجدها صاحية دون اخوتها فاقترب منها.. واحتضنها.

ـ لماذا لا تنامين؟

ـ حاولت.

ـ هل تشعرين بشيء؟

ـ نعم

ـ ماذا؟

ـ أشعر برغبة في أن أبقى بجانبك حتى تعود ماما.

وضمها إليه.. ولم يستطع مقاومة.. فقد تدفقت من عينيها الدموع.

ـ سوف تعود قريباً إن شاء الله.

وفي الصباح.. أسرع كالعادة إلى «الهليكة» وكانت سعادته غامرة.. عندما وافق سليم.. ووافقت فاطمة.. وتم كل شيء بهدوء.. وأحس وكأنه يرمي عن كاهله آخر الأحزان..

شعر أبو صالح بأن الحياة قد بدأت تبتسم له من جديد.. وأن الله قد استجاب لدعوته.. فقد ملأت فاطمة المنزل بالسعادة.. وفرح بها الأطفال وأقبلوا عليها.. وبدت كأنها ضخت دفقات من الطاقة في حياتهم وحركت المنزل من جديد وأعادت إليه الحياة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسارت بهم الأيام.. والرجل يحسد نفسه على ما هو فيه من سعادة، هـو وأولاده، وفاطمة تبذل من ذاتها، أكثر ما تتحمله طاقة البشر.. لتوازن بين عنايتها بالأولاد.. ورعايتها للأب الذي يشكرها في كل نظرة يلقيها عليها.. وشعرت أنها تعاني من مظاهر الحمل.. وزفت البشرى إليه.. وفرح لأنـه يحبها.. وأسعده أن يراها سعيدة بحملها وهو أيضاً متلهف.. فهو يريد طفلاً من فاطمة يضيفه إلى أبنائه.. يرد به لها أعظم جميل أسدته إليه.. ويسدد لها بعض دينها الذي يشعر أنها طوقت به عنقه.. وتتعسر الولادة وتنتقل فاطمة إلى المستشفى.. وترابط القلوب أمام غرفة العمليات.. وتضـرع الأكف إلى السماء، وتلهـج القلوب بالدعوات.. ولكـن قضاء الله نافذ.. وتعلن النتيجة التي لا مفر من إعلانها.. فقد لفظت فاطمة أنفاسها.. وتركت له توأمين.. ولولا إيمان ثابت ويقين أصيل، لقضت الصدمة عليه.

وأحس كأن الدنيا كلها تقف شامتة منه.. وكأن الجميع ينادونه من جديد.

ـ على أولك.. يا دله مخروقة.. يا شيشة بلا لي.

مرة ثانية، وجد الرجل نفسه وأولاده.. وقد أضيف إليهم رضيعان في قلب الضياع.. وتعود الخطوات المتثاقلة، والنظرة الكئيبة، والشرود وراء الأوهام المريرة، والخوف من العودة إلى البيت.. وابنته على صغر عمرها فهي لم تتجاوز السابعة.. تتعاون مع إحدى الجارات على العناية بالرضيعين.. وأطلق الناس عليه الشائعات.. رجل شؤوم منحوس.. ترمقه العيون أينما حل وحيثما سار، كأنه يصحب عزرائيل معه.. والمحنة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تزداد وتشتد، ويصل إلى سمعه همس الجيران.. بأنه رجل «دفان».. وخيل إليه أنه يسمع النداء من جديد.

يا دلة مخروقة.. يا شيشة بلا لي.. يا وجه النحس.

وحزن.. وهزت الصدمة روحه.. وكادت تقضي على ما بقي من صبره بعد أن أحس بوطأة الكارثة.. حتى اختلط عليه الأمر.. وأخذ الأسى يعتصر أعماقه، ويهز كيانه.. وأيقن بأن الدنيا كلها تشمت فيه والناس يحملونه مسئولية قضاء الله وقدره.. ما ذنبه في كل ما حدث؟ ما ذنبه إذا كانت الأحداث تلاحقه.. والقضاء ينزل بساحته وصاح بأعلى صوته:

كفاية يا ربي.. كفاية يا ربي.. أنا ضعيف.. أنا مسكين.. ليش يا ربي كل هذا.. ليش يا ربي.. ليش؟؟

وسقط على الأرض.. وبقي برهة وهو يدفن وجهه بين كفيه.. وأحس بالأطفال يقتربون منه.. فوقف.. وراح يضمهم إلى صدره.. وهو يقول:

ـ استغفر الله.. استغفر الله.. سامحني يا رب.

لقد كادت الصدمة تهز إيمانه.. واجهش في بكاء مرير وتدفقت دموعه تتساقط على صدره وأحس بأنها تلامس رؤوس الأطفال وهم ساكنون ورؤسهم على صدره، فقد كان يريد أن يجنبهم حتى مجرد الإحساس بالألم.. والحزن.. ولكن الدموع كانت أكبر من مساحة الأجفان.. فراحت تنحدر في غزارة.

اقترب أبو حمزة منه.. ووضع يده على كتفه..

ـ لك ولهم الله يا أبو صالح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ونعم بالله يا . . هليكة .

كان يقف أمام الدكان حزيناً ملتاعاً، يحدث صديقه . . بينما كان سعيد بالداخل :

ـ لم لا تستعين بمربية؟

زفر في ألم وهو يعلن رفضه واستنكاره .

ـ ومن أين لي؟

وهل يجوز لرجل مثلي أن يجعل تحت سقف بيته امرأة غريبة عنه؟ ووافقه متلعثماً، وهو ينظر بعينيه من خلف النظارة السوداء، ثم استجمع قوته وقال مع حركة يديه . .

ـ تـزوج يا أخي . . تزوج .

انتظر برهة . . ولما لم يتلق رداً، عاود الحديث في حسم . .

ـ هذا هو الحل الوحيد لمشكلتك .

اقترب أبو صالح من أذنه وهمس بعد تودد :

ـ أنت رجل طيب يا أبو حمزة . . ألم تسمع ما يهمس الناس به عني .

أجفل أبو حمزة فقد كان يعلم لكنه اضطر إلى التجاهل . .

ـ بماذا يهمسون؟

مال أبو صالح أكثر على أذنه، وهو يهمس في مرارة . .

ـ يقولون أنني رجل مشؤوم . . رجل دفان . .

استنكر الهليكة في غضب صادق :

ـ خرافات . . هذه خرافات . . الأمر لله . . من قبل ومن بعد . . ولا تموت نفس قبل أن تستكمل أجلها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ صحيح.. ولكنهم يهمسون بها.. ويلاحقني الصبية يا أبو حمزة.

ـ اسمع.. تزوج من حي آخر.غير حيناً.

أطرق أبو صالح وهو يستوعب الاقتراح الجديد.. ورآه معقولاً ولكن صوتاً آخر ارتفع من داخله: رجل مشؤوم.. رجل دفان..

وتصبب العرق البارد على جبينه فمسحه بظهر يده المرتجفة.. بينما صديقه يكرر القول من جديد..

ـ أقول لك.. تزوج من حي آخر غير حينا..

وأطرق أبو صالح برأسه إلى الأرض.. وتحدث إلى أبو حمزة وكأنه يتحاشى النظر إلى وجهه:

ـ وهل تساعدني كما ساعدتني من قبل؟

أجاب أبو حمزة في حماسة وهو يناوله الكيس:

ـ دون شك.. وسوف أبحث لك عن العروس المناسبة..

وحاول أن يخفف عنه.. بالحديث عن الدنيا ومصائبها.. وشرح له مقدار المتاعب التي يلقاها في منزله ليخفف عنه بعض أشجانه.

ـ كل الناس عندها اللي يكفيها يا أبو صالح، وسبحان مقسم البرد على قد اللحاف.

أنه بهذا يشير له إلى أن متاعبه كبيرة، وهي غير خافية على أبو صالح.. ويعلم أن الهليكة مبتلى أيضاً بشذوذ بنت من بناته.. وتصرفاتها التي جلبت عليه وعليها الكثير من المشكلات.. بل وحتى العار.. ولم ينقطع حديث الناس عنه وعنها.. ومع ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهو صابر محتسب.. يحاول أن يعالج أموره بحكمة، ويبدو أمام الناس مبتسماً والألم يعتصر قلبه عندما كان يسمع حديث الناس عن «مزنة» التي يعلم مقدار طهرها.. وحرصها على الفضيلة.

لكنه لا يستطيع أن يوقف الناس عنها.. لأن تصرفاتها غير مرضية.. وطباعها جلبت لها المتاعب لأنها كثيرة الخروج من المنزل.. كثيرة التجول في الحارة.. وتدخل بيوتاً لا يرضى عنها الناس، وتزور بيوتاً ليس فيها نساء.. وأبوها يعمل جاهداً لمنعها.. ولكن دون جدوى، وهكذا خلقت له بتمردها ألواناً من المتاعب.. فهو لا يقل بلاءاً عن أبو صالح.

والتفت إليه مرة أخرى:

ـ اللي فيها.. مكفيها.. يا أبو صالح.

وردد معه أبو صالح:

ـ اللي فيها يكفيها.. والمفرج كريم.

وأحس.. أبو صالح أن الهليكة يجتر كلماته من داخل روحه وأعماق قلبه لأنه مثله يعاني من كلام الناس وحكمهم.. وسخريتهم.. مما يعرفون وما لا يعرفون.. فهم يتسلون بالسخرية من جراحات العباد.. ولكن هل يفعل ذلك كل الناس؟.. وأغمض عينيه عندما وصل إلى هذه المرحلة من التفكير.

وفي اليوم التالي.. استيقظ الهليكة مبكراً، وصلى الصبح في المسجد الحرام.. ثم حرص على أن يذهب للشيخ عبد الله في منزله بمفرده.. ليخطب لأبو صالح، ولكنه لم يجده.. وأخبروه أنه يأتي في المساء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحرص مرة أخرى على أن يذهب بمفرده، بعد صلاة العشاء، إلى المقهى الذي اعتاد صديقه عبد الله أن يمضي بعض الوقت فيه، فوجده يتجاذب أطراف الحديث مع الشيخ «نافع»،وسلم الهليكة وجلس،وحرص أن يوجه دفة الحديث إلى مأساة «أبو صالح» وفجيعته في زوجته الأخيرة والعبء الذي تضاعف عليه بالتوأمين الرضيعين.. ولما أنس من عبد الله وصديقه الشيخ نافع تعاطفاً وفهماً.. مضى في الحديث عن قسوة بعض الناس في الحارة، الذين اتخذوا من مثل هذه المحنة سبباً للتندر والتشاؤم من «أبو صالح» الذي لا ذنب له.. وهنا قاطعه الشيخ نافع في استياء:

- إن مثل تلك الأقوال، ليست من الإسلام في شيء.. فالإسلام لم يعرف الشؤم ولا يقر التشاؤم.. والمسلم الحق.. إذا رأى ما يكره فعليه أن يتمثل قول رسول الله ﷺ «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وصادف الكلام هوى في نفس «الهليكة»، وأمَّن، وهو منشرح الصدر مع صديقه عبد الله على قول رسول الله ﷺ وتعمد أن يزفر متنهداً، وهو يقول:

- هذا هو الحق وعين الصدق.. ولكن من يعي القول ومن يفهم العبرة؟

انبرى الشيخ عبد الله للإجابة في حماس:

- كل مسلم ياصديقي.. والحديث يقول:-

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«اللهم لا خير إلا خيرك. . . . ولا إله غيرك». . فهل ترانا نشرك بالله سبحانه وتعالى. . ؟

ـ حاشا لله. . حاشا لله. .

وانفجرت أسارير الهليكة، وانحنى نحو الشيخ عبد الله. . قائلاً:

ـ الحق أن هذا الحديث قد أثلج صدري. . وأزاح الغم عن كاهلي. .

أدرك عبد الله ما يرمي إليه. . لكنه سأل وشبح زوجته «شفيقة» يلوح له منذراً. . .

ـ خيراً إن شاء الله.

ابتسم الهليكة عن أسنان خربة. . قائلاً:

ـ لقد سرني ما سمعته منك يا شيخ عبد الله. . وقد جئت أخطب ابنتك لأبي صالح. . وصمت الشيخ برهة ثم قال:

ـ الخيرة فيما يختاره الله. . والمسائل قسمة ونصيب. وأبو صالح يستاهل كل خير.

وشعر الهليكة بأن هذا القول موافقة، وأخذ طريقه إلى بيت «أبو صالح» فوجده يعد زجاجات الحليب للرضيعين، وأطفاله الأربعة من حوله يتصايحون. . والرضيعان يبكيان. . في جانب آخر من الغرفة.

إحدى الزجاجات تسقط من يده وتتحطم. . وترتفع صرخة ألم من ليلى. . لقد داست على شظية فجرحت قدمها. . والرجل كالتائه لا يدري ماذا يفعل وأي الأطفال يدرك، ثم زادته «زيارة»

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أبو حمزة المفاجئة ارتباكاً . . فصاح به وهو يدس الزجاجة في فم أحد الرضيعين :

ـ تفضل . . لحظة أكون بعدها عندك . .

لكن الهليكة نبهه إلى صراخ الطفلة . .

ـ بل سأنصرف . . فالوقت غير مناسب وأنت مشغول كما يبدو . .

ثم صاح وهو يتوكأ على ولده متجهاً إلى الباب :

ـ أردت فقط أن أبشرك . .

وسمع أبو حمزة صديقة يردد من الأعماق بصوت أعلى من بكاء الأطفال وصياحهم :

ـ كريم يا رب . .

وعاد . . الهليكة إلى بيته . . وظل ينتظر وصول إجابة من الشيخ عبد الله ومضت عدة أيام . . ولم يسمع شيئاً، وساوره القلق عندما لم يتلق رداً . وتوجس خوفاً، عندما مر أسبوع بكامله . . وقرر أن يذهب إليه بعد صلاة العشاء في المقهى الذي يجلس فيه . .

كان عبد الله صادقاً في عزمه على أن يزوج ابنته «حياة» من أبو صالح وأن ينتشله من وحدته . . لكنه ما أن فاتح زوجته في الأمر . . حتث استنكرت قوله واتهمته بالجنون لمجرد التفكير في مثل هذا الأمر الخطير، ثم صاحت مولولة :

ـ أبداً لن أزوج ابنتي الوحيدة من رجل تموت عنده

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الزوجات.. رجل «دفان».. رجل يلاحقه النحس في كل مكان بل هو النحس نفسه.

ـ وحاول أن يحاورها في هذه الحجة الخرافية، ولكن دون جدوى.. وقال وهو يذكرها بأنهم كانوا ينظرون من يطرق بابهم ليخطبها:أحمدي الله أن جعله يتجه إلينا ويطلب ابنتنا.

لكن المرأة أجابته بسلاطتها المعهودة:

ـ لو أن أحداً في حارته قبله زوجاً لابنته.. ما اتجه إلينا وطلب يد ابنتنا يا رجل، ثم أضافت بحدة:

ـ انهم يعرفون شؤمه، ويعرفون أن كل زوجة دخلت بيته على قدميها.. خرجت منه محمولة على الأعناق.. أنا أريد زوجاً لابنتي وليس قبورجياً.. دفاناً.

استغفر عبد الله ربه.. ثم قال:

ـ الموت والحياة بيد الله وحده يا أم حياة.. وإذا وافى زوجاته الأجل تباعاً.. فهذا قضاء الله، ولا ذنب له في ذلك..

ثارت المرأة.. واندفعت الكلمات من فيها بلا حساب، ثم قالت بلهجة حاسمة:

ـ لن أزوج ابنتي من هذا المشؤوم الدفان.. ولو خلت الدنيا من الرجال.. ولم يبـق على وجهها غيره..

ذهب إليه الهليكة في المقهي، ووجده جالساً مع الشيـخ نافع.. أجفل حين رآه.. ولكنه نهض نحوه مرحباً، وطلب له الشاي، وبعد أن استقر في المجلس، بادره قائلاً:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ خيراً إن شاء الله.. يا عبد الله.. لقد انتظرتك كما اتفقنا، ولكنك لم تحضر ولم ترسل من يطمئنني على...

اختلس عبد الله نظرة إلى الشيخ نافع قبل أن يقول بلعثمة:

ـ آسف يا صاحبي.. لقد رفضت.. البنت.. وكذلك أمها.

فوجىء أبو حمزة، وكان يهم برفع فنجان الشاي: فأعاده إلى مكانه.

ـ ولكنك وعدتني وقد بشرت الرجل.

ونظر عبد الله نحو الشيخ نافع الذي أطرق في حزن.. ثم زفر وهو يقول:

ماذا أفعل يا أخي؟.. وامرأتي مريضة بالتشاؤم، وقد سمعت الناس في حيكم يقولون عنه.. أنه «دفان».

قاطعه بحركة من يده المعروفة:

ـ كفى.. أنا أعرف ما يقولون.. لا حول ولا قوة إلا بالله

كانت الكلمات تتهاوى على الهليكة، وكأنها السياط تلهب ظهره، وقد ألجمته الصدمة، فلم يعلق بشيء وقام يضرب الأرض بعصاه مبتعداً.. لقد كان آخر ما يتوقعه.. تشاؤم الشيخ عبد الله.. فهو شيخ المسجد.. وهو الذي يعظهم دائماً.. وينهاهم عن التشاؤم والطيرة.. وها هو يسقط في أول امتحان، وينكشف عند أول اختبار.. ولقد تألم الهليكة لأن هذا الأمر حدث مع الشيخ عبد الله بالذات، وراح يحك لحيته.. في تفكير عميق، وهو يردد فيما بينه وبين نفسه: «دنيا ما فيها خير»..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«عيش كتير تشوف كتير».. وصحا على صوت المعدة يناديه، وهو يمر من أمام المركاز:

ـ خير على فين يا هليكة؟

ـ خير.. يا عمدة.. ولو أن اللي شفته ما فيه خير.

ـ استغفر يا رجل.. وعسى أن تكرهوا..

ـ معاك حق.. لكن..

وتوقف، ثم انعطف نحو المركاز.. وسحب كرسياً وجلس بجوار العمدة.. وراح يقص عليه الحادثة:

ـ يا سيدي.. المسألة قسمة ونصيب.. ويمكن الرجال معذور..

ـ يعني ايه يا عمدة؟

ـ لعل له عذراً وأنت تلوم..

ـ ما فهمت يا عمدة..

ـ يعني.. زوجته رفضت.. أو البنت رفضت.. أو الذي منه.. يعني وصمت الهليكة.. ثم أومأ برأسه موافقاً:

ـ صحيح.. لعل له عذراً وأنت تلوم.

وودع العمدة.. وانصرف عائداً إلى المنزل.

ووجد نفسه أسير التفكير في المأساة.. ودخل بيته حزيناً، وما كادت ابنته «مزنة» تفتح له الباب حتى راعها ما يعلو وجه والدها من كآبة صارخة.. فاقتربت محاولة أن تعرف السبب.. وشعر الأب بأنه يريد أن يفصح.. عن كل شيء.. حتى يخفف عن ثقل الألم الذي يعتصره من الداخل.. فراح يروي مشهد الأمس، ومشهد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اليوم من المأساة.. كان يروي أحاسيسه العميقة.. وهو إنسان هزته مأساة أخيه الإنسان، وأشقاه موقف «عبد الله وزوجته» ولم يخطر بباله أن شابة في عمر «مزنة».. يمكن أن تدفعها أحداث المأساة إلى مشاركة والدها الألم.. ثم تقاسمه البحث عن حل..

وفي اللحظة التي تصل المأساة فيها إلى ذروتها.. تجعل من نفسها وشبابها ساحة الحل «لأبو صالـح» وأولاده.. وفوجىء بها.. تقترب منه أكثر وهي تقول:

ـ لقد وجدت الحل الأمثل للمشكلة يا أبي.

ـ وما هو؟

ـ أنا الحل.. إذا كان يوافقكم ويرضيكم..

فاقت المفاجأة كل تصوراته.. فارتبكت مشاعره.. هل يفرح لأن ابنته فياضة الأحاسيس والمشاعر إلى هذا الحد؟.. أم أنها تريد حل مشكلة عرضت له، ولو على حساب شبابها وحياتها؟

ـ مزنة.. إن له ستة أولاد..

قالها في لهجة تحذير.. فعادت تقول:

ـ لماذا لا أكون أماً لهؤلاء الستة.. يا أبي؟

نظر إليها في إكبار.. لقد نشأت هي الأخرى يتيمة الأم.. وكان هو بالنسبة لها الأب والأم في وقت واحد.. ولعلها أدركت عمق مأساة الأطفال وعظم معـاناة الـرجل.. فتـطوعت لتقوم بالمهمة الصعبة..

وأطرق والدها.. يفكر.. لماذا هذا التصرف؟.. وبهذه السرعة من «مزنة».. وماذا عن ماضيها.. وواقعها.. وآلامها ونظرات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناس إليها.. وهل تريد أن تقابل شقاءاً بشقاء؟

وأحس الهليكة بالألم يعصر فؤاده.... عندما بدأ يفكر في «أبو صالح» وما يعرفه عن «مزنة» وكلام الناس عنها.. وهل يمكن أن يقبل.

وهل يفهم معنى أن يقدم ابنته له؟.. لقد تردد كثيراً في الماضي كلما خطر له أن يعرض عليه الزواج من «مزنة».. لقد كان يكره حتى مجرد التفكير في ذلك.. كان يتمزق بين مشكلة ابنته.. ومشكلة صديقه المسكين.. لكنه الآن أكثر تعاسة فهو يواجه موقفاً حرجاً.. يضيف إليه تعاسة أخرى أثقل من السابق.

كيف سيتحدث مع «أبو صالح» عن الموضوع؟.. وهو يعلم كلام الناس في «مزنة».. وكثيراً ما رموها بتهم شتى، وكثيراً ما همسوا بأنها فتاة ليست حسنة السمعة.. مع أنه يعرف براءتها.. وطهرها..؟ لكنه لا يستطيع عمل شيء.. فهي تصر.. على ما تفعله.. وتواصل لقاءاتها وزياراتها.. لكل البيوت التي يثير حولها الناس كلاماً وأقاويل.. ولا تلتفت لما يقال عنها.. فقد كانت مؤمنة بالرسالة التي تؤديها ولم تنجح كل الشائعات في أن تصرفها عن هدفها.. وظلت تعمل في صمت.. وصبر. وكانت تحس بالسعادة تغمرها، وهي تساهم في إسعاد هؤلاء الضعفاء.. الذين حرموا من رفاهية الحياة.. ولم يرحمهم الناس.. فظلموهم لأنهم فقراء.. وشكوا فيهم لأنهم مساكين.. وحتى إذا حدثت مشكلة في الحارة.. فإن أول من يلتفتون إليه هم هؤلاء وأبناؤهم وبناتهم.. حارة ظالمة.. ومجتمع قاس.. لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يرحمهم.. بل يستكثر أن يساعدهم أحد.. ولكنها مصممة على إكمال مشوارها حتى النهاية..

جمع «الهليكة» أطراف شجاعته.. وتوجه إلى منزل «أبو صالح» وقد صمم على أن يفاتحه في الأمر.. وأن يتحدث معه بكل صراحة، ولكنه ما كاد يدخل المنزل.. ويواجهه،حتى أحس بأن قواه قد خانته تماماً، وكاد يسقط مغشياً عليه.. فقد تجمع كل الهم في رأسه دفعة واحدة.. وهاجمه هاجس خوف.. لم يتعوده من قبل.. لقد خشي أن يرفض.. أو يظن أنه يريد أن يستغل ظرفه.. فيزوجه «مزنة» ويرزأه بها.. وهنا أحس وكأن الدنيا قد غامت في وجهه.. وأسرع إلى الجلوس وأرخى رأسه على «المسند» وراح يتلو آية الكرسي.. ويتمتم بدعاء.. يسأل الله فيه العون والثبات.. وكأنما أحس «أبو صالح» بما يعاني منه «الهليكة» من قلق داخلي وحيرة نفسية.. فانحنى عليه يسأله:

- خير يا أبو حمزة.. ايش بك.

- ولا حاجة، خير إن شاء الله.. تعبان شوية.

- سلامتك.. أجيب لك حاجة

- لا شكراً.. الحمد لله أحسن.. الآن

- الحمد لله.

وبدأ مرة أخرى يستجمع قواه.. ويشيح ببصره عن وجه «أبو صالح» وجدت العروسة.. يا أبو صالح.

- خير.. الله يبشرك بالخير يالله صباح الخير.

- الله يجعله خير.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ مين يا أبو حمزة.. من هيه؟

ـ بنتي «مزنة»

ـ بنتك «مزنة»؟

وخيم على الجو سكون وهدوء.. وبدأ وكأن الكلمات قد تجمدت على شفتيهما.. وصمت «الهليكة» ولم يتكلم.

وصمت أبو صالح.. ولم يعلق بشيء.. وعاد الصمت يطبق على المكان. وحاول «أبو صالح» أن يمزقه.. فأسرع بالخروج.. من الغرفة وهو يقول:

ـ الله نسيت.. الحليب.. الشاي

ـ سامحني يا أبو حمزة.

وشعر «الهليكة» بأن الرجل يريد أن يهرب منه.. لقد وقع ما كان يخشاه.. ليته لم يتكلم.. ليته وسط شخصاً آخر ليتحدث في الموضوع.. فقد كان من الممكن أن تكون الصدمة أخف عليه وعلى «مزنة».. ولكن لماذا.. يفكر هكذا؟.. وما الذي جعله يظن أن الرجل يرفض؟.. ألا يحتمل أن تكون المفاجأة قد أذهلته.. أو أنه لم يصدق أذنيه.. رب ساعدني في محنتي هذه.. ويسر لي ما قد تعسر.

ولكن لماذا كل هذا الخوف؟.. ولم يحمل الأمر أكثر مما يحتمل.

لماذا يخشى تفسير أبو صالح؟

ألم يتعود الناس على تزويج بناتهم بهذه الطريقة.. لقد تعود

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكثيرون على الوقوف عند أبواب المسجد الحرام.. يتفحصون وجوه الشباب ويتخيرون من يتوسمون فيه الخير.. ويعرضون عليه الزواج من بناتهم.

ليس غريباً ما فعله هو إذاً.. ما عرض على «أبو صالح» الزواج من «مزنة» ويجب أن لا يخشى شيئاً أبداً.. حتى وإن رفض «أبو صالح» ولكن لماذا يرفض.. وكيف؟. ربي ساعدني.. في محنتي هذه.. وصحا من تفكيره على صوت «أبو صالح يمد يده له «بالفنجان»

- اتفضل يا أبو حمزة.
- ومد يده وأخذ يشرب.
- كثر خيرك يا أبو صالح.
- البيت بيتك.. وأنت صاحب فضل.
- الفضل لله واحنا أخوان.
- يا أبو حمزة.. أنت قلتلي العروسة «مزنة» بنتك؟..

والحقيقة أن الموضوع مفاجأة لي.

- ليش مفاجأة

وتلعثم أبو صالح.

- لأنها.. لأنها صغيرة.. وأنا أبو عيال زي ما أنت شايف.
- إذاً هو يتهرب من الموضوع.. ويحاول أن يجد لنفسه مخرجاً من هذا المأزق..
- وكما يقال.. ليس هناك دخان بدون نار..

وطرأت لأبي صالح فكرة في أن يستشير صديقاً قديماً له..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فذهب إليه.. وفاتحه في الأمر.. وهالته الطريقة التي استقبل بها صديقه الموضوع.. فقد لامه حتى على مجرد التردد في الأمر.. وقال وهو يكاد يستلقي على ظهره من شدة الضحك:

ـ يا عمي ماذا تخسر.. أحمد ربنا.. وزي ما قال المثل.. ضربوا الأعمى على عينه.. قالوا خايسة.. خايسة.. يا راجل توكل على الله.. وأحمد ربك.

وأطرق رأسه إلى الأرض.. وتذكر أنه بالفعل يحتاج إلى «مزنة» بل إلى أية إنسانة تشاركه هذه المأساة، تقف بجانبه وتكفيه المشكلات ولن يكترث إلى كلام الناس.. ولكن الأطفال.. كيف.. كيف يأمنها عليهم.. وهي فتاة ولكنه عاد وتذكر.. أنه بحاجة إليها.. وعاد كلام صديقه يتردد في مسمعه.. ولذا فقد صمم على المضي قدماً.. وتوكل على الله..

وتم الزفاف في هدوء.. وانتقلت «مزنة» إلى بيتها الجديد.. تعيش مع «أبو صالح» وعادت الفرحة ترقص على وجوه الصغار من جديد وأخذوا يحيطون بالقادمة الجديدة حتى وقت متأخر من الليل.. ولم يتركوها حتى طلب منهم «أبو صالح» أن يذهبوا لينامو.. وخلا هو إلى عروسه الجديدة.. وفي الصباح.. أسرع إلى منزل «الهليكة» وراح ينادي.. حتى نزل.. وفتح له باب المنزل.

ـ بيض الله وجهك يا أبو حمزة.

ـ الحمد لله.. الله يوفق بينكم.

قالها وهو يتجه ببصره إلى السماء.. يشكر الله الذي.. أنقذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من هم كاد يقضي عليه.. وحفظ سمعة ابنته «مزنة» وأظهر الأمر على حقيقته.. وأثبت براءتها.. وطهرها.. الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله.. فهذه أول إشاعة ثبت كذبها، وها قد أثبتت ابنته طهارتها وأنها ما تزال بكراً عفيفة وردد معه أبو صالح.. الحمد لله.. أيوه الحمد لله.

ونظر إليه الهليكة.. وهو ما زال مطرقاً رأسه إلى الأرض.. وكانت نظرة ذات معنى وبدأت الحقيقة تتكشف لأبو صالح.. وعرف كل شيء عن «مزنة» هذه الفتاة الطاهرة التي أكل الناس لحمها، وأساؤوا إليها وإلى عائلتها.. لمجرد أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الحقيقية.. واتهموها بالرذيلة.. ورموها بألوان التهم الباطلة.. وشككوا في عذريتها.. ثم في حملها.. هكذا ظلماً وبدون وجه حق.. وعرف أبو صالح كل شيء.. عرف لماذا كانت تدخل تلك البيوت الفقيرة.. وكيف كانت تزور الضعفاء والمساكين حتى الرجال المتقدمين في السن.. والذين حبسهم المرض.. والفقر.. والزمان.. في بيوتهم، فلم يعودوا قادرين على الخروج.. ووهن العظم منهم ولم يبق فيهم شيء متمالكاً وداهمهم المرض والشيخوخة الطاحنة وغزاهم الشيب.. وقست عليهم الوحدة ونسيهم الناس خلف أبواب لا تفتح، ونوافذ لا يدخل منها حتى الهواء النقي.. كانت المسكينة «مزنة».. تدخل إلى هذه البيوت تسأل عن أهلها.. وتقدم لهم الطعام.. والدواء.. وتعينهم في صمت.. وهم أيضاً يستقبلون عونها ومساعدتها في صمت، فقد أسكتهم الزمان.. وقست عليهم ظروف الحياة.. ولهذا فقد كانت علاقتها بهم.. علاقة صامت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بصامت.. ولكن أشرار الحي لم يرحموها.. وأخذوا يتكلمون وهي صامتة صابرة، فقد كانت مؤمنة بما تؤديه وأن هناك من يعلم.. وهو أكبر من هؤلاء جميعاً.

وأحبها أبو صالح.. أحبها بكل جوارحه، وأحس بارتباط عجيب بها.. وأخذ يزداد يوماً بعد يوم حباً «بمزنة».. وشعر بأنه متعلق بها أكثر وأكثر.. وعزا ذلك إلى تعلق الأطفال بها. وهذا الجو الجميل من السعادة.. والمرح الذي أدخلته على البيت.. حتى نافس أولاده على حبها.. ولا يكاد يغادر البيت حتى يعود إليه مرة أخرى.. وصارحها يوماً بالأمر فقالت في دلال:

ـ شيء طبيعي.. أنت نسيت أني عروسة جديدة؟

ـ لا.. لا.. الموضوع أكثر من كده.. أنا شاعر فعلاً إني أحبك. يا مزنة.. صدقيني.. لما أقول إني أحبك.

ـ والله ما حبيت.. غير حبك يا «أبو صالح»

ـ صحيح؟

ـ اسأل قلبك.. والا أقولك.. اسأل أولادك..

وضحكت وهي تتجه نحو المطبخ.. لتعد العشاء.

حاولت.. مزنة.. أن تصم أذنيها عن حديث.. بعض نساء الحي.. فقد تبارين في التعريض بها من جديد.. ورحن يبررن زواجها من «أبو صالح» بأولاده الستة أنها كانت طريقة طيبة للتخلص من ماضيها.. وأنه رجل طيب وقد ستر عليها.. وكتم سرها.. وكانت تبتسم دائماً، كلما بلغها ذلك.. فقد حمدت الله أنها وجدت الرجل المناسب الذي أحاطها بحبه وشملها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

برعايته.. وهؤلاء الأطفال الذين أصبحوا شغلها الشاغل.. وملأوا عليها حياتها.. وكانت مزنة تشعر بسعادة غامرة وهي تنتظر «أبو صالح» ليعود من عمله أو وهي تودعه.. عندما يخرج إلى الصلاة وصوت المؤذن.. يطرب سكون الليل.. ويحيل هدوء الحارة إلى.. أنس وحيوية.. وكلما سمعت المؤذن ينادي.. الله أكبر.. الله أكبر.. أحست بالطمأنينة.. وأن الله كبير.. كبير.. وأنه يقف إلى جانب الضعفاء أمثالها.. وعندما يستمر في النداء.. أشهد أن لا إله إلا الله.. تحس «مزنة» براحة نفسية كبيرة.. وخاصة عندما يرتفع صوت «أبو صالح».. وقد انتهى من الوضوء ليقول.. مع المؤذن نعم.. لا إله إلا الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

ويأخذ طريقه نحو المسجد.. وقد وضع السجادة على ظهره.. ولف حول رأسه الغبانة والحزام يلتف حول وسطه.. وفي يده عصاه يتوكأ عليها.. ويصرف بها كلاب الطريق.

وفي الناحية الأخرى.. كان هناك من يتعجب في الحارة كيف أقدمت «مزنة» على هذا الزواج؟. وأنها لا بد قد غلبت على أمرها أو ربما ضاقت ذرعاً ببيت أهلها.. ولهذا خرجت، بأي ثمن.. وإلا كيف قبلت بهذا «الدفان»؟ ولماذا قبلت أن تدخل بيتاً يعشش فيه النحس؟. لكن.. «مزنة» مضت قوية.. شامخة.. ولم تحاول الإجابة.. أو حتى الالتفات لما يقال.. فقد كانت مؤمنة بكل ما تفعله.. وكانت سعيدة بحياتها الجديدة فقد منحها الأطفال كل أسباب السعادة عندما أقبلوا عليها.. وأحبوها وتعلقوا بها وأصبحوا لا ينامون إلا معها.. تبقى معهم تحكي لهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحكايات.. تربت بيد الحنان عليهم.. وتدخل يدها الحانية تعبث بشعر الصغار.. حتى يناموا وكانوا ملتصقين بها.. يعودون إلى البيت وكلهم لهفة.. وكأنهم يخشون فراقها.. ولم تنحسر هذه المشاعر عن «أبو صالح» فقد كان يحس بخوف شديد يعتصر قلبه كلما فكر في «مزنة».. في احتمال أن تتركه والأطفال.. كان يملوءه الخوف.. ولكنه خوف من المجهول.. وهو شعور لم يفارقه منذ أن تعلق «بمزنة» بل أصبح هاجسه الذي لا يفارقه.. والذي يخنق سعادته في لحظات الذروة، وكلما رأى الأطفال يحيطون بها.. ويلعبون معها والسعادة تغمرهم أحس بالألم يهز كيانه خوفاً وقلقاً على سلامتها.. ولم يصارحها بشيء.. بل ظل يصارع خضم الخوف.. بسواعد الأمل.. وعمق الإيمان.

وجاءت اللحظات الحرجة.. عندما حملت «مزنة» وكانت سعيدة.. فرحة.. والأطفال أيضاً كانوا في منتهى السعادة وهم يتلقون الخبر.. أما «أبو صالح» فقد ضاقت به الدنيا على رحبها.. وتطبق عليه الخناق.. وأصبح فريسة سهلة للوهم يمزقه.. وينشر القلق في جميع جوانبه كان يتخيل أشياء كثيرة.. ويتوقع أموراً كثيرة، ويدفعه الوهم إلى تصديق خرافات لا وجود لها، بل كان.. عرضة للتهيؤات.. وسيطر عليه الوهم بصورة جعلته يعتقد بأن مزنة حتماً سوف تموت.. وصار يراها في المنام، ويقوم منزعجاً يفزع إلى الصلاة.. يسأل الله اللطف به وبأطفاله وأن يبقي لهم هذه الإنسانة التي أدخلت السعادة إلى المنزل.. وأحالت البكاء.. والعويل.. إلى فرح، والحرمان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والشقاء.. إلى سعادة غامرة.. وغمرت البيت كله بالسعادة.

وأحس بأهمية التصرف.. وأن يوقف وقوع هذه الكارثة.. وبدأ يخطط لتنفيذ فكرته.. وتحدث إلى والد مزنة الذي عاتبه عتاباً شديداً وأفهمه أن الأمور بيد الله، وأن عليه أن يطرد هذه الهواجس والأوهام، ونصحه بأن يقلع عن فكرة اسقاط الجنين بأي شكل..

لكن الأمر كان قد بلغ مبلغه، بالنسبة له، وصمم على تنفيذ فكرته.. لا بد من إسقاط الجنين بأي ثمن.. لا بد من إنقاذ «مزنة» ودون أن تحس أو أن تدرك لماذا..

وبدأ بخطته.. وكان يقوم بتصرفات عجيبة معها.. ويلعب معها ومع الأطفال.. ويحاول أن يجعلها تقفز.. أو يطلب منها أن تزيح معه الدواليب.. وكان يجلسها على الدرج ثم يسحب رجلها لتتدحرج درجة درجة وهي تبتسم.. وتظنه يلاعبها.. وكانت تسخر منه.. وتنادي على الأطفال.

- يا أولاد أبوكم.. صار «بزرة» صغير يحب اللعب.. زي الصغار. وظلت تبتسم في براءة.. وسذاجة.. ولم يخطر ببالها أن «أبو صالح» يحاول إسقاط الجنين من بطنها..

وفشلت الخطة.. ولم يستطع أن يحقق أي نجاح.. وبدأت علامات الحمل.. تظهر أكثر وأكثر..

وأحس أبو صالح برغبة ملحة في عمل شيء.. شيء حاسم.. اتصل بالمختصات من «دايات» الحي وبذل جهداً كبيراً.. لإغرائهن بإعطائه دواء.. يساعد على إسقاط الجنين..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خاصة وأنهن خبيرات في هذا المجال، بحكم عملهن في الولادة وشئون النساء.. ورفضن.. وقبلت واحدة منهن وأعطته وصفات معينة، راح يدسها «لمزنة» في الطعام.. أو مع الحليب وكله أمل في أن يتخلص من هذا الجنين بأي ثمن.. وحدثت المفاجأة المذهلة فقد تحدثت إحداهن عن محاولات «أبو صالح» في إسقاط الجنين وتوفرت مادة جديدة للحديث في الحارة.

وأخذن في بث الإشاعات بأنه غير واثق منها ومن حملها.. وأنه يريد إسقاط الجنين بأي ثمن..

وبدأن في بث الإشاعات من جديد...

وما أن وصل الأمر إلى مسامعها حتى ذهلت.. فقد بدأت.. تتذكر تصرفات «أبو صالح» معها.. والحركات التي كان يقوم بها.. وأحست لأول مرة بكابوس ثقيل يجسم على صدرها.. فهو يشك فيها إذاً.. وحاولت تطرد هذا الهاجس.. ولكن دون جدوى.. وظلت تراقبه في صمت.. والشك يملأ نفسها..

وأصبح البيت مشحوناً بالقلق والخوف والشك.. ولم يلاحظ «أبو صالح» التغيرات التي حدثت لزوجته، فقد ظنها من جراء الحمل.. وكان ذهنه مشغولاً بتحقيق الهدف الذي يسعى إليه.. إنه يريد أن يسقط الجنين بأي ثمن..

وأحست «مزنة» بالقلق الذي يعتصره.. وتأكد لها أنه يعاني من أشياء كثيرة.. ولاحظت أنه لا ينام.. ويظل يتقلب في فراشه.. وراعها أنه كثير النظر إلى بطنها.. وبدت ملامح الخوف واضحة عليه.. ولم يعد عندها أدنى شك في أنه يشك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيها.. فقد كانت كل تصرفاته تقول ذلك..

وحدثت الكارثة.. عندما لاحظت في الصباح بطريق الصدفة أنه يدس لها أشياء غريبة في الحليب.. واتضح لها لماذا كان يحرص.. على عمل الحليب بنفسه لها..

إذن.. هو يخدعها ويريد الخلاص من الجنين الذي بدأ يتحرك في أحشائها.. إنه يشك فيها.. وفي حملها..

لا زالت الصورة القديمة تسيطر عليه..

لا زالت عنده فتاة سيئة السمعة..

خسارة.. خسارة وألف خسارة..

خسارة يا أبو صالح

وعندما وصلت بتفكيرها عند هذا الحد.. أحست بأنها غير قادرة على الوقوف.. ولم تعد قدماها قادرتين على حملها.. فجلست.. ووضعت وجهها بين كفيها وانخرطت في البكاء.. فقد سقطت أمامها جميع الأقنعة..

وعرفت أن الناس.. لا يتغيرون وما بنته السنون لا تغيره الأيام..

وأحست أنها خسرت «أبو صالح» الرجل الذي أحبته بكل مشاعرها.. وضحت بكل شيء من أجله، وآلمها.. أن يتنكر لها.. وأن تبلغ به أنانيته إلى هذا الحد الذي يؤذيها.. ويخدعها.. ويدس لها هذه السموم.. في الحليب...

لا.. لا.. هذا كثير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنه رجل شرير.. وصحيح ربنا ما يعطي العبد غير اللي يستحقه أنه قاتل.. قاتل.. ولا بد أنه كان السبب فيما حدث لزوجاته السابقات.

وأحست بفزع شديد عندما وصلت إلى هذه المرحلة من التفكير..

وسمعت ضجة في الخارج، وما هي غير لحظات حتى اندفع الأطفال من باب المنزل وراحوا يحيطونها بحنان.. وتجمعوا حولها.. ولكنها ظلت واجمة لا تتحرك.. وراحت تنظر إليهم والدموع تترقرق في عينيها.

ـ ماما.. ماما أنت تعبانة والا إيه؟.. ماما.

وصحت على صوت ندائهم:

ـ لا.. لا.. أنا بخير..

ـ طيب ليش ما أنت زي عادتك؟.. ليش ساكتة يا ماما؟.. ليش تبكي يا ماما..

ومدت ذراعيها تحيطهم بها.. فقد أحست بعواطفهم تنفذ إلى أعماقها.. إنهم يحبونها.. وكرهت أن تفسد عليهم سعادتهم.. فراحت تحاول ملاطفتهم.. وتصطنع ابتسامة ترضيهم بها..

وبدأت دوامة شديدة من التفكير تلفها بسرعة عجيبة.. وكانت تتساءل. ما ذنب هؤلاء الصغار؟ إنهم سيقاسون من الحرمان.. ومن التشرد مرة أخرى، إن هي غادرت المنزل ولكن.. لا.. لا يمكن أن تعيش مع أبو صالح تحت سقف واحد.. لا.. لا يستحيل، ولا بد من مغادرة المنزل.. وليساعد الله هؤلاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصغار.. على أبيهم وعلى الزمان فكلاهما غدار.

وبدأت تجمع ملابسها مصممة على مغادرة المنزل.. وما أن ذهب الصغار إلى المدرسة في صباح اليوم التالي حتى استعدت للخروج ولكنها فوجئت «بأبي صالح» يدخل وهو مطرق الرأس، وتبادلا النظرات.. وكانت نظرات ملأى بالشك والتهم، وتحدث وهو يتجه نحو المطبخ وكأنه يتحاشى نظراتها:

ـ أعمل لك الحليب اليوم يا مزنة..

ـ اللي عملته كفاية..

ولاحظ اللهجة التي تحدثت بها..

ـ يعني إيه؟

ـ يعني كل شيء أصبح واضح..

ـ عن إيه؟

ـ عن الأشياء اللي بتحطها في الحليب.

ـ هو أنت عرفتي

قالها في ارتباك واضح:

ـ أيوه عرفت.. ربنا هو اللي عرفني.

ـ صدقيني يا مزنة.. قصدي كان..

وتجمدت الكلمات في فمه ولم يكمل.. فقد كره أن يفصح لها عن مخاوفه.. وخشي أن يزرع القلق والخوف في نفسها.. وآثر أن يتحمل هو كل شيء.. لا.. أن لا يجعلها تفكر فيما يفكر فيه.. وأن تخشى ما يخشاه..

وأسرع يجيب مرادفاً ومتداركاً:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ إنه دواء خاص.. وقد أخفيته خشية أن ترفضيه..

عجيب أمره.. يبرر عمله المشين بهذه البساطة.. إنه أناني.. يريدها لأبنائه خادمة.. ثم هو يظنها ساذجة تقبل بهذا التفسير الأبله.. إنه أناني.. وشرير.. إنها تكرهه.. تكرهه.. واندفعت خارجة ووضعت العباءة على رأسها، ولم يحاول منعها ورجع إلى الداخل.. وجلس وحده يفكر.. لقد تطور الأمر بصورة سريعة.. وعلى نحو لم يحسب له حساباً..

ولكنه بقي مصمماً على إسقاط الجنين.. وإنقاذها من الموت ولا بد من أن يلحق بها عند أهلها.. ولا شك أن والدها سوف يساعده في اقناعها وأحس برجفة تجتاح جميع جسده عندما تذكر والدها وخشي أن يطلعها على السر ليخفف عنها ويفسد عليه خطته.. ولذلك أسرع باللحاق بها.. فقد تذكر أنه سبق أن أفضى إلى والدها بمشاعره، ورغبته في إسقاط الجنين..

ووصل إلى المنزل وهو يلهث من شدة الجري.. وطرق الباب وفتح له الهليكة وبادره أبو صالح بالسؤال:

ـ هل قلت لها أي شيء

وأجابه وهو ينظر إليه في شفقة:

ـ نعم لقد كانت حالتها سيئة، فخفت عليها وعلى الجنين.. ثم أنني غير مقتنع بهذا الذي تفعله بنفسك وبها يا أبو صالح.. آمن بالله يا رجل.. آمن بالله..

وسقط أبو صالح على مقعد قريب منه.. وهو ينظر إلى الهليكة في عتاب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ليش؟.. ليش يا هليكة.. عملت كده ليه؟

وأطرق الهليكة برأسه إلى الأرض، ولم يجب بشيء، وأحس بشفقة عميقة على أبي صالح فقد آلمه أن يصاب أبو صالح بكل هذه الهواجس والأوهام التي أطبقت عليه من كل جانب، وأصبح أسيراً لها ليله ونهاره..

هكذا أحاطت به كل هذه الأوهام فجأة، بعد أن كان رجلاً قوياً صارماً في وجه الأحداث التي قابلته.. واستقبلها بإيمان وصبر عميقين.. ولكنها إرادة الله.. وتعلقت نظرات الهليكة به مرة أخرى.. وقال وهو يحاول أن يخفف عنه بعض آلامه.. وأحزانه.

ـ لقد أخبرت مزنة بالأمر.. لأخفف عنها.. وفسرت دوافعك النبيلة من وراء كل هذه التصرفات.. وأوضحت لها خوفك الكبير عليها ولكنها لم تصدقني وظنت أنني أحاول التخفيف عنها.. وأهون عليها.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني.. أنها تشك فيك..

ـ تشك في أنا؟

ـ للأسف نعم.

ـ لماذا؟

ـ تعتقد أنك رجل كذاب

ـ مزنة تعتقد أنني كذاب؟.

ـ نعم.. وإنك قد عدت إلى شكوكك القديمة.. وبدأ كلام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهل الحارة يجد له صدى عندك.. وفي نفسك فصدقته.

هذا غريب..

ـ هذه هي الحقيقة.. أفهمت لماذا كنت أحاول أن أشرح لها الموضوع؟

ـ نعم فهمت..

وصمت أبو صالح، وتدافعت الصور في رأسه وتلاحقت الأحداث.. وأحس بأنفاسه تتلاحق، وأخذ صدره يعلو ويهبط وكأنه عائد من مشوار طويل هد قوته وأمسك بذراعي الهليكة.. وراح يشدهما نحوه في عصبية وانفعال واضح..

ـ أين هي؟.. أين مزنة؟.. أريد أن أراها.. أن أتحدث إليها.

ولم يتكلم الهليكة.. وراح أبو صالح يكرر الرجاء..

وعم المكان صمت مطبق.. وراح الهليكة يحدق في عيني أبو صالح وقال وهو يشده يجلس على المقعد مرة أخرى:

ـ أرجوك أن تهدأ يا أبو صالح.. دعنا نعالج الأمور بهدوء.. أرجوك يا رجل..

ـ ولكنني أريدها.. أريدها،هل تفهمني؟. هل تفهمونني يا ناس؟.

وفتحت «مزنة» باب المؤخرة.. وبدت منصبة شامخة وهي تتحدث إلى أبو صالح:

ـ ولكنني فهمتك.. أكثر مما فهمك الناس.. وعرفتك أكثر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مما عرفك كل الناس.. واكتويت بأنانيتك وخداعك.. بعد أن حبيتك وضحيت بكل شيء من أجلك.. ومن أجل الأولاد.. لقد أحببتك يا أبو صالح هل تفهم؟. وقاطعها أبو صالح:

ـ وأنا أيضاً أحببتك يا مزنة

وجاء جوابها كالصاعقة:

ـ لا تقل أحببتك.. لا تقلها.. أنت كاذب يا أبو صالح.. أنت كاذب.

ـ لا لست كاذباً، كنت أخاف عليك...

ـ بل كنت أنانياً تخاف على سمعتك.. وأنت تعلم صدقي وبرائتي لكنك غدرت بي وخذلتني..

لقد ظلمني.. أهل الحارة.. وعانيت من ظلمهم طويلاً، ولكن ظلمك كان أشد يا أبو صالح كان أكبر.. وأشد قسوة، فقد خذلتني في وقت كنت أشد ما أكون فيه إلى عونك.. وفاجأتني بموقفك وآلمتني بظلمك.. وعذبتني بشكك.. لأني أحببتك بكل جوارحي.. هل تفهم؟. أحببتك يا أبو صالح، وكنت أظنك الدرع الذي سوف يحميني من الناس ومن كلام الناس.. فتحولت إلى سهم أصابني في الصميم.. وقتلت حتى الأمل الذي كان ما يزال حياً في نفسي يوم تزوجتك.. كنت أظن أن الظلم الذي عانيته أنت من المجتمع، سوف يدعوك للوقوف معي وليس ضدي.. ولكنك غدرت بي وخذلتني.. خذلتني يا أبو صالح.. أخرج.. أرجوك أخرج.. دعني.. دعني، الله معى.. دعني.. دعني..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واندفعت بعصبية وألم نحو الغرفة.. وقد وضعت رأسها بين كفيها.. وانخرطت في بكاء مسموع.. واستدارت نحوه بوجهها الذي أغرقته الدموع.. وأشارت بيدها..

ـ طلقني يا أبو صالح.. طلقني.. أرجوك طلقني ولا تعذبني..

وسقطت.. الكلمات كالصاعقة عليه.. ووقف واستند بظهره إلى الحائط.. عيناه معلقتان بما لا نهاية، وشعر بخوف شديد وألم يعتصر كل كيانه.. ولم ينطق بحرف وطال الصمت.. وطال الانتظار.. والكل في حالة ترقب وبدأ الجسدان وكأنهما قد تجمدا وارتفعت نبضات القلوب وأصبحت كل الأعصاب مشدودة وكأنها تقف على حافة هاوية سحيقة، ومرت اللحظات ثقيلة الخطى بطيئة المسير مملة الوقع.. مفزعة.. فقد هاله وأفجعه صوتها، وأحس بطرقات شديدة على رأسه حتى ليكاد يتوقف عن التفكير أو ينفجر..

نظرت إليه وتفرست في وجهه. وترقبت ترقباً يشوبه خوف.. خوف منه.. لا عليه.. وهو في خوف عليها.. حاول أن يتكلم.. أن يقول لها شيئاً، وراح ينظر إليها في ذهول، وتجمدت الكلمات على شفتيه ولم يتكلم.. وأحس أنه يقف أمام المجهول.. وجهاً لوجه.. ولم يعد يعرف ماذا يصنع.. وحفر الألم في وجهه علامات بدت وكأنها متلازمة معه لسنوات طويلة. وظل ساكناً.. بلا حراك.. سوى شفتيه المرتعدتين اللتين كانتا تنطبقان وتنفرجان وتخرج منهما كلمات غير مفهومة إلا له.. فقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أراد أن يعبر عن الحقيقة، ولكن الصدمة كانت كبيرة.. ولم يبك فقد كان الدمع أكبر من مساحة الأجفان.. وجاءت الكلمات وكأنها بقايا كلام.. أو حطام أصوات تحتضر وكأنه ينزف من الداخل، وتوقفت حركة الشفاه، وأخذ من أعماقه شهيقاً.. كأنه كان في حاجة إليه ليستجمع بقايا قوته ويصرخ في وجهها قبل أن يهوي إلى الأرض:

ـ لا.. لا.. لن أطلقك.. سوف تبقين لي حتى نهاية العمر.. هل تفهمين؟

وخرجت الكلمات صادقة معبرة.. وأحس بأنه قد أرتاح كثيراً بعد هذا.. وامتدت يد الهليكة إليه وأخذه إلى الخارج.. وتركها في المنزل إلى أن تضع مولودها.. وتهدأ الأمور قليلاً..

ورافقه إلى الخارج.. وهو في ذهول مما حدث.. فقد تطورت الأمور بشكل لم يكن يتوقعه أحد.. وأحس أبو صالح بأنه مظلوم.. ظلمته مزنة بشكوكها، فقال وهو يودع الهليكة:

ـ أنا مظلوم وأنت تعرف ذلك.

ـ وهي أيضاً مظلومة.. ظلمتها أنت.. دون أن تدري، وأسأت إليها من حيث أردت الإحسان.

ـ طول عمري كنت مظلوم من الناس.

ـ وهي أيضاً كانت مظلومة.. فلما لجأت إليك ظلمتها أنت كذلك.

ـ إنني أحبها يا أبو حمزة

ـ وهي أيضاً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لكنها طلبت الطلاق.

ـ أرجو أن لا يكون هذا هو نهاية الطريق.

ـ أرجو ذلك أملي في الله كبير.

انصرف أبو صالح عائداً إلى منزله.. وأحس بوجود هوة سحيقة تفصل بينه وبين مزنة.. وتضاءل الأمل في عودتها، وتردد في مسامعه صوتها.. وكأنه يأتي من عالم آخر.. طلقني.. طلقني يا أبو صالح. واختلطت في ذهنه صور متلاحقة سريعة.. وجاءه صوت أهل الحي مرة أخرى:

الدفان.. الدفان.. «على أولك».. «يا دلـه مخروفـة».. «يا شيشة بلا لي».. «على أولك».

وأدرك أن الهوة تتسع.. وتفصل بينهما وعاوده الخوف من جديد.

ومضت الأيام التالية.. وكأنها سنوات.. ومزنة مصرة على موقفها رافضة أن تعود إلى المنزل رغم تعلقها بالأولاد.. ولكنها كانت تكتفي بالسؤال عنهم وبزيارتهم لها.. وحاولت جاهدة أن تخفي معالم الشك الذي بدأ يتسرب إلى نفسها عن صدق «أبو صالح» وحبه لها.. وراحت تسترجع كلماته وصورته الشاحبة يوم أن طلبت منه الطلاق.. وأحست بشيء يدعوها لكي تصدقه.. وقاومت هذا الهاجس، ولكنه أخذ يعاودها.. ويلح عليها.. وهي ماضية في عنادها وتصميمها.

وتصاعدت درجات التوتر مع اقتراب موعد الولادة.. وهو خائف عليها وهي خائفة منه.. والأولاد يتضرعون إلى الله أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينجيها بالسلامة، وأن يردها إلى المنزل. فقد أزالت بحنانها عنهم ألم اليتم والتشرد الذي كانوا يحسون به.. وها هم عادوا أيتاماً من جديد. وفي تشرد أليم خاصة «أبوهم» يعاني من هجر «مزنة» للمنزل وبعدها عنهم جميعاً.

وبدأت اللحظات الحاسمة.. وحضرت «الداية» ومعها «أم سعيدة» جارتها ودعاه الهليكة للحضور.. وأخذت ملامح التوتر والخوف والقلق تزداد وراح يتحرك في أرجاء المكان.. والهليكة قابع في أركان الغرفة يقرأ سورة «يس» بصوت مرتفع.. ورهبة قوية تملأ عليه نفسه.

وتوقف أبو صالح عن الحركة.. وأخذ يرهف السمع وبدا وكأنه قد استسلم لما يدور في داخله من هواجس.. وارتمى على أقرب مقعد.. بعد أن عصفت به الأفكار.. وأحس بعدم القدرة على الحركة.. ومر أمامه شريط طويل لحياته الملأى بالمآسي.. وطافت به الذكريات الأليمة.. وبدأت تتجسد أمام عينيه.. على حلقات متتابعة متصلة في إصرار غريب.. شعر لثقلها بالاختناق وحاول أن يهرب.. ولكنه اصطدم بالواقع الذي يعيشه وهو أكثر إيلاماً من الماضي.. فهذه مزنة في الداخل.. تعاني مرارة آلام الوضع والله وحده يعلم أبعاد النهاية والمصير.. وحتى إذا قدر لها النجاة فإنه يخشى أن يكون قد فقدها إلى الأبد.. والأولاد لن يسامحوه على ذلك، فقد أحبوها أكثر مما أحبها.. وكانت لهم في منزلة الأم..

يا إلهي.. ما أتعسه.. لقد أشقى نفسه بنفسه..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعم المكان صمت كئيب وتوقف الهليكة عن القراءة ووضع «القرآن الكريم» في حجره وراحوا جميعاً ينظرون بلهفة إلى الداية التي خرجت مسرعة ثم عادت إلى الغرفة وهي تحمل أشياء جمعتها من الغرفة.

وتوقف كل شيء.. حتى شريط الماضي بدا وكأنه قد تجمد هو الآخر.. وسادت لحظات من الصمت.. كأنها العمر كله.

وإذا صوت المولود ينطلق.. باعثاً الحياة المشرقة من جديد وانطلقت النسوة «بالغطاريف»، وخرجت الجارة وضحكات البشر على محياها.. أما هو فقد كان متلهفاً على سلامة مزنة فأخذ يصرخ:

ـ وكيف حال مزنة؟.. مزنة كيف حالها.. يا خالة؟

ـ بخير يا ولدي.. الحمد لله

وسمعت مزنة في الداخل صوته، المرتعش وأحست من نبراته العميقة المتلهفة ما يعانيه قلبه وكيانه ومشاعره من لهفة صادقة وحب خالص فسرت في كيانها أصداء اللهفات.. وهزها صوته الحنون وهو يسأل عنها وعن سلامتها.. فتساقطت قطرات من الدمع.. على وجنتيها وانفرجت شفتاها عن ابتسامة امتزجت بالتسامح.. وتمتمت بحمد الله وشكره على السلامتين..

ودخل أبو صالح.. ووضعت مزنة المولود في حجره وهي تبتسم:

ـ صدق اللي قالوا «ومن الحب ما قتل».

ـ وتجمع الأولاد حولها في يوم «السابع»، ووقفوا يرددون في نشيد جميل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يـا رب يـا رحمانـي بـارك لنـا في الغـلامي
يـا رب يا رحـمانـي بـارك لنـا في الغـلامي

وأمسك أبو صالح يدها.. وراح يتمتم.. وعيناه تحدقان في عينيها وأحس براحة نفسية تغمره.. وسرت نسمة من السعادة في أرجاء نفسه.. وانحنى يقبل رأسها:

ـ سامحيني يا مزنة.. سامحيني..

ـ أنت اللي تسامحني.

ـ لكن قولي لي.. الحارة فيها ناس كثير طيبين.. ومع ذلك ما كنا نسمع غير كلام الأشرار..

ـ صحيح يا أبو صالح الحارة فيها كثير من الناس الطيبين ولكنهم صامتون، ساكتون، والأشرار هم الذين يتكلمون.. هل فهمت يا أبو صالح؟ الأشرار يتكلمون.. وتعلوا أصواتهم.

ـ فهمت يا مزنة.. فهمت..

وأطبق بيده عليها....

وتعالت أصوات الأطفال:

يـا رب يـا رحـمـانـي بـارك لنـا في الغـلامي
... طـلبـنـا بـنـيـة جـانـا غـلامي
يـا رب يـا رحـمـانـي يـا رب يـا رحـمـانـي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَداعًا لِلاحزان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَداعـًا لِلاحزان

أسرعت خطى جميلة بلا وعي منذ أحست ببعد المسافة بينهما، ثم سرت نشوة السعادة الحلوة عندما لحقت به،ووضعت يدها بيده وهي تتمتم.

ـ علام أركض وراءك لألحق بك؟ وأنت «ولا أنت هنا»

ابتسم «راكان» وهو يضم يدها الملتفة حوله بحنو واضح، والشوق يرقص في عينيه غبطة من قول زوجته، والتفت إليها وقال وهو يضم رأسها نحوه أكثر.

ـ أنت حساسة جداً يا جميلة وتُحَمِّلينَ الأشياء فوق ما تحتمل.

ـ أبـداً.. صـدقني أنني أحـاول أن أخفي الكثيـر من مشاعري... خشية أن أعكر عليك السعادة التي أنت فيها.

ـ التي نحن فيها.

ـ نعم التي نحن فيها يا «راكان»

ـ إذاً أنت تعترفين أننا سعداء.

ـ نعم.. ولكن بتضحية من جانب واحد.. مني أنا.

ـ أنت تظلمينني يا جميلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ بل هذا ما أحس به فعلاً.. أن شعوراً بالضيق.. والخوف يداهمني. أحياناً عندما...

وصمتت.. ونظر راكان في عينيها ولمح آثار.. دموع تتجمع في مآقيها تستعد للانحدار.

ـ ودون أن يدري احتضنها بلهفة وضمها إليه بود عميق أحس معه بنبضات قلبه تتردد في صدرها.

ـ كل شيء فيك رائع.. جميل إلا..

ـ إلا ماذا..؟

ـ إلا هذه الحساسية المفرطة.

ـ لأنك كل شيء في حياتي وأتمنى من أعماق روحي أن أكون لك كل شيء في الحياة.

ـ وهل تشكين في ذلك؟

ـ ربما لا.. ولكني أريد أن أحس به.. ويحس الناس به.

ـ أتريدين أن أصرخ هنا في وسط «شارع أكسفورد» وأقول للناس جميعاً إنني أحبك..

ـ وتوقف فجأة.. وكأنه يريد أن يصرخ.. وأسرعت تضع يدها على فمه تمنعه.. فقبلها، وقالت والرقة تنساب في عبارتها والعتاب يفيض من كلماتها:

ـ أنت مجنون.. ستجمع الناس علينا هنا في «أكسفورد»

ـ أليس هذا هو ما تريدينه.. ثم لماذا لم أغضب عندما قلت أنني مجنون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لأنك تفهم قصدي وتحس همسات مشاعري ودقات آمالي.

ـ وأنت ألا تعرفين..؟

وأجابت وطيف ابتسامة حالمة ترفرف على شفتيها.

ـ أعرف ولكنني أنثى!!

ـ وأنا يا «جميلة» رجل شرقي.. وأتمنى أن تفهميني. فأنا نبتة شرقية الجذور غذتها المشاعر الطبيعية الواضحة الصدق، وسرت المحبة بين قلوب قومي، فسادهم الود العميق والتضحية الصادقة بلا منة ولا زيف.

ـ وهل ترى.. المشاعر في الغرب.. والعواطف زائفة؟

ـ ليست كلها صادقة، فقد غطتها الحضارة بردائها البراق وحجرتها عن الانطلاق والصدق والوضوح.

وقاطعته «جميلة» وهي تنظر في عينيه مباشرة وكأنها تحاول أن تستبق الإجابة.

ـ وكيف تحكم على هذا الذي نراه هنا.. بأنه ليس تعبيراً حقيقياً أو عاطفة صادقة؟

ـ كلا إن أكثره انسياق وراء نداء الطبيعة وسدّ حاجة الكون!! إن ما ترين ظاهرة اجتماعية حسبها الرقي الساذج بأنها أسلوب للتعبير عن العواطف العميقة والحب البريء العارم.. إنها سدّ للفراغ الروحي في عالم مادي قاتل لا يعرف التضحية والإخلاص، فالعيب ألا يكون للأنثى رجل والرجل له أنثى، أنه إثبات الذات أمام مجتمع فرض هذا على البشر فظهر في الأماكن العامة بلا حياء كالبهائم والحيوانات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ تعني الخجل..

ـ لا بل أعني الحياء.

ـ أعتقد أننا أمة تكبت مشاعرها وأحاسيسها، وتخفي عواطفها وتخجل من التعبير صراحة عنها، فكان رد الفعل عميقاً في حياتنا.. وفي بنائنا الاجتماعي وبخاصة من الداخل.

ـ ها.. ذكرتني يا «جميلة» بموضوع الداخل.. فنحن أمة تهتم بالجوهر.. ولا تعير المظاهر اهتماماً كبيراً.

ـ هذا خطأ في رأيي.. وهذا كبت للمشاعر.

ـ أنت معجبة بالغرب.. وتأتي أحكامك من خلال هذا الإعجاب.

ـ عدت إلى نقطة الضعف عندي.. والتي تستعملها سلاحاً ضدي دائماً لأني عشت بعض حياتي فيه.

ـ إنها الحقيقة.. ففي حوارك تريدين أن تقفي مني موقف النّد للنّد.

ـ ألست إنسانة مثلك؟

ـ بلى.. ولكنك أنثى ومن طبيعة الأنثى أن لا تحتد.. ولا يرتفع صوتها.

ـ حتى إذا ظلمت.. وحتى إذا؟.

ـ لا.. لا لم أقصد هذا.. وإنما في الشرق نحب أن تبقى الأنثى.. دائماً وديعة.. تمتص غضب الرجل.. وتذيب انفعالاته.. وتكون له ولأبنائه «سكناً» لروحه.. نسمة عذبة يرتاح في ظلها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أليست لها مشاعر؟. ومن حقها.. آن تجد في شريك حياتها.. الإنسان الذي يخفف عنها متاعبها.. وآلامها.

ـ هذا صحيح.. ولكن الرجل يحتاج إلى الدفء والحنان والكلمة الحانية التي تملأ قلبه بالرضا والسعادة.

ـ لماذا؟

ـ لأنها أنثى.. وهي كتلة من المشاعر العميقة والعواطف الصادقة.. والحنان الدافق.. تسعد بها من حولها وتنثر الحب كالزهرة الفواحة.

ـ والرجل... أصغير هو؟

ـ إنه أصغر الصغار.. فهو ليس صغيراً فقط.. وليس شقياً فقط.. بل هو مزيج من كل هذا..

ـ وكيف تتعامل الأنثى مع كل هذا؟

ـ عليها أن ترتشفه حتى الثمالة.. لتحس بالحلاوة السائغة والود العميق والسعادة الدافقة.

ـ وما الذي يعينها على ذلك؟

ـ النظرة العميقة في داخله.. لأن حبه وحنانه في داخل الأعماق والمشاعر.. وروعته في ثنايا روحه.. ورجولته.. إنسانيته كامنة في سويداء قلبه.... و...

ـ كفى.. كفى..

وأخذت بيده.. وانعطفت نحو إحدى محلات «الهمبرجر» وأخذا يتناولان الطعام، وهي صامتة لا تتكلم.. وكانت نظراته حادة.. ولاحظ قطرات من الدمع تلمع في عينيها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ماذا بك.. يا «جميلة»؟

ـ تكلمي يا «جميلة» ماذا بك؟

ولم تتكلم.. ولم تحاول أن ترد عليه.. وأذهله صمتها.. وخشي من نظراتها.. «جميلة» تكلمي أرجوك.. وأمسك بيدها يضمها بين يديه.

ـ جميلة أرجوك تكلمي.. إنني أحبك.. ماذا بك.. هل تأثرت من الحوار؟

ـ نعم..

ـ وهل أنت غاضبة؟

ـ أبداً.. أبداً.. فقد شعرت بقربك وإحساسك وحبك أكثر من أي وقت مضى.

ـ لماذا كنت صامتة إذاً؟

ـ كنت أغور في ثنايا قلبك وعميق مشاعرك.

وصمتت برهة وهي تنظر في عينيه مباشرة.

ـ إنني أنظر في داخلك.. هل تفهمني؟

وتبسمت.. وهي تنحني بشفتيها.. تقبل يديه التي ضمت يدها.. ولم تستطع إخفاء قطرة.. انحدرت من عينيها.

رب اجعله آخر الأحزان.....

محمد عبده يماني

٩ محرم ١٤٠٤ هـ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيء من الحب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيء من الحب

وقف «الونيت» أمام دكان العم «رجب» وهبط الرجال من السيارة وراحوا ينفضون عنهم غبار السفر، وبدأت جموع المصلين في مغادرة المسجد الحرام، وبدأ العم رجب وسط الناس بقامته الطويلة وجسمه الممتلىء، ولحيته الطويلة التي أخذ الشيب يزحف نحوها وكأنه يغزوها على استحياء... وكان يلف رأسه «بالغبانة» وهي عمامة من القماش المزركش بصورة جذابة وبلون يميل إلى الصفرة، ويتحزم «بالبقشة» وهي الأخرى حزام من قماش يختلف بين الأبيض المزركش... والبني الغامق... هكذا تعوّد العم رجب أن يلبس... وحياته تكاد تكون روتينية، فهو بعد أن يصلي الصبح في المسجد الحرام يخرج إلى شارع الحميدية... يتجه نحو زقاق البخارية حتى يصل إلى الدكان ويشرع في إزالة الغطاء الذي يلف المكان ويبدأ في إعداد الحليب للزبائن.

وقف العم رجب في وسط الدكان،وراح ينظر إلى الشارع وقد بدأت الحركة تدب فيه،ومد يده على لحيته وهو يتمتم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله يا فتاح يا عليم. . يا رزاق يا كريم

وتقدم الرجال الذين هبطوا من السيارة الونيت نحو العم رجب وصاح أحدهم:

ـ يا عم رجب. . . فطور لسمحة.

ونادي العم رجب على مساعده. .

عبي فطور لسبعة يا ولد.

وصاح الرجال دفعة واحدة.

ـ أصبح يا شيخ لا تقل سبعة.

. . قل سمحة. . أصبح يا شيخ

والتفت العم رجب نحوهم. . وهو يبتسم:

ـ طيب. . عبي فطور لهم،يا الله صباح خير. .

وأخذ الرجال يتناولون افطارهم،وانحنى العم رجب وقال مازحاً:

ـ مرحباً بالسبعة

ـ يا شيخ «خاف الله» لا تجلب لنا المشاكل

ـ ليش ما تحبون رقم سبعة

ـ علشان. . إذا قلت سبعة يشتلوك السبعة.

ـ ومن هم السبعة. .

ـ السبعة الجان. .

ـ هذه خرافة. .

ـ ربما هي خرافة ولكن ليست الخرافة الوحيدة في البلد.

ـ ماذا تعني

ـ البلدة ملأى بخرافات كثيرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأضاف أحدهم وكانت تبدو عليه سمات الوقار وقد أرخى لحيته . . . ولف رأسه بعمامة . . وبدت عليه سمات العلماء:

ـ يا سيدي هذه أمور توارثناها منذ القدم.

ـ ولكنها خرافات . . وأنا أقول سبعة وسبعة وسبعة صابني شيء

ـ ربما في المدينة ما في جن مثل «الديرة» وتنحنح أحدهم وعلّق:

ـ هم جن المدينة . . كلهم جن عسى الله يكفينا شرهم . .

. . وانحنى العم رجب يجمع زبادي الحليب من أمام الزبائن، وحانت منه التفاتة إلى السيارة «الونيت» التي نزل منها الرجال، فلمح امرأة ملتفة في عباءتها وقد تكورت على نفسها في مؤخرة صندوق السيارة . . فقال العم رجب:

ـ ألا تعطون المرأة طعاماً؟ . .

ـ هذه بنتي يا شيخ . . ما هي مرة . .

ـ طيب ما تعطيها فطار . .

ـ إلاَّ . . لكن . .

ـ لكن ماذا . .

ـ لكن وين تأكل؟ . . . وسط الرجاجيل؟ . . .

وصمت . . العم رجب . . وقال وكأنه تذكر شيئاً:

ـ أدخلها عند البنات في الداخل وأشار إلى «دهليز» المنزل ـ تأكل ثم تأخذها معك.

ـ جزاك الله خيراً . . جزاك الله خيراً . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ وهبطت الفتاة من الونيت وسارت خلف العم رجب الذي أدخلها إلى المنزل. . . وصاح في بناته:

ـ يا صالحة. . يا جميلة. . عندكم ضيفة. . .

وأقبلت البنات مسرعات. . وأخذن بيدها إلى الداخل.

وخرج العم رجب إلى الدكان وراح يقدم الحليب لزبائنه واقترب من والد الفتاة وأخذ يهمس في أذنه باستحياء:

ـ تراها ما تتكلم.

ـ كيف؟

ـ لقد أصيبت بالصم وهي صغيرة. . وظلت على حالتها هذه ولم تنجح كل محاولاتنا لعلاجها.

لا حول ولا قوة إلا بالله. .

ـ الحمد لله يا عم رجب بس رجاء تخبر البنات. . . علشان يعرفون. . . ويكون عندهم علم.

ـ حاضر. . . أبشر يا ولدي.

وباهتمام واضح أسرع العم رجب إلى داره. . ليجد ابنتيه قد اقتربتا من معرفة واقع «الضيفة» وما تعانيه. . وجاء دخول والدهن نجدة سريعة لنهي حيرتهما. . في أسباب حذرها ورفضها لأي محاولة تقرب أو ترحيب تبدو منها. . فهي منكمشة لا ترغب في خلع عباءتها لتستريح. . تدير نظرات حائرة في الوجهين الغريبين ولا تعي معنى التقائها بهما. . . وتكد ذهنها في تحسس هذا العالم المجهول بالنسبة لها. . . نظراتها فاحصة متفرسة فيما حولها. . . . تنتهي دائماً على صفحتي الوجهين الْمُوَرَّدَين اللذين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يطلان عليها بكل ترحاب، يختلط بالانتظار لردة فعل مناسبة يتوقعانها منها. . . وقبل أن يشرع أحدهما في سؤال أبيها، سبقهما:

ـ يا صالحة. . با بنتي الله يرضى عليك أنت وأختك. . أختكم هادي الله ابتلاها في سمعها. . . أبوها من شويه قال لي هو مستحي. . عشان أقول لكم ترى يا بنات ما يحتاج وصيّة. . البنت «صنجة» ما تسمع، لا تضايقوها. . ولا تفهموها بالغلط. . دخيلك خدي بالك منها ووسعي صدرك. . الله يشافيها ويعفي عنها وعن أمة محمد أجمعين. . .

ولم يلبث عم رجب أن قفل عائداً إلى دكانه وصوته مرتفع بالدعاء للفتاة ولابنتيه. . بأن لا يريه الله مكروهاً فيهما. . . ولم تلاحظ جميلة وهي تحدق مندهشة في ضيفتها التي تقارب سنّها، والتي فرحت بها أنها فعلاً لا تسمع. . . وهذا هو سر رفضها للتباسط معها، وقالت تحدث نفسها. . لقد ظلمت المسكينة. . وكان من واجبي أن أحس بمشكلتها. . فلا يمكن لإنسانة بهذه الرقة. . والبراءة والجمال. . أن تكون جافة كما تصورت. . ولم تستطع جميلة مقاومة مشاعرها. . . .

وتصاعد انفعالها مع تلك الخواطر التي مرت سريعاً في ذهنها. . فاندفعت راكضة إلى غرفتها وأغرقت وسادتها بالدموع، إشفاقاً على حال ضيفتها وعلى ظلمها لها. . وشكها فيها. . ولم يثر تصرف جميلة اهتمام صالحة كثيراً، إذ كانت تعرف عنها رقة الإحساس ورهافة الشعور، خاصة فيما يتعلق بأحزان الآخرين فهي تتعاطف معها بشدة تخيف والدها وأمها عليها. . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ولكن لا بأس على جميلة من بعض الدموع تذرفها.. ريثما تهتم هي بضيفتها.

هكذا حدثت صالحة نفسها.. وهي الآن أكثر قدرة على التفاهم مع الضيفة.. فالإشارة لغة جيـدة للتخاطب...

وعينان حانيتان تمكنتا من إقناعها بالتخلص من عبائتها.. والاسترخاء.. حتى شرعت معها في تناول ما قدمته لها من طعام.

ولم تتوقف صالحة عن التفكير في أمر جليستها..

وأخذت تطوف في وجهها بنظرات فاحصة مرتاحة،فوجه الفتاة كان مريحاً جميلاً بريئاً لم يزل يحمل ملامح الأطفال.. تبارك الخلاق، فمن عينين تغطيهما أهداب طويلة.. ويعلوهما حاجبان مقرونان إلى شعر أسود فاحم، يغطي كتفيها وينسدل حتى خصرها.. كل هذا يشكل لوحة رائعة لصنعة الخالق، ليس ما يقلقها سوى آثار كيّ قديم على جانب عنقها.. وكأنه وشم قديم.. يزيد من التأكيد على انتماءها إلى نقاء البادية وطهرها..

ـ اكتفت الفتاة بالقليل من الطعام الذي يبدو أنه لم يكن تمنعاً بقدر ما كان عادة.. بل وفطرة ينم عنها تناسق قوامها.. بلا امتلاء... ولم تفلح صالحة في اقناعها بالزيادة فتـركت لها الحرية،خاصة وقد حضرت جميلة بعد أن جففت دموعها من انفعالاتها... وأخذت تحاول كأختها بناء جسور اتصال بينهما. ولم يمضِ وقت طويل حتى كانت تمرح معهما في البيت.. وتساعدهما في الشيء البسيط الذي يمكن أن تتقنه.. وترقبهما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بفضول ذكي إذا انهمكتا في أداء عملهما.

ـ وفي الخارج كان الزبائن يشكرون العم رجب،مودعينه إلى لقاء إخر.

ومنهم والد الفتاة الذي اقترب يشكر العم رجب ويرجوه استدعاء ابنته ليصطحبها معه..

بعث العم رجب مساعده لاستدعائها.. فخرجت إليه تتبعه وعيناها معلقتان بعيون ترقبها من الداخل،وعند وصولها إلى حيث أبيها كانت دموعها قد أعلنت عن نفسها،متوسلة إليه لو يسمح لها أن تمضي بقية نهارها مع فتاتي العم رجب،وأخذت تشير في استحياء للتعبير عن رغبتها تلك،التي خجل الرجل أن يبديها للعم رجب.. ولكن الآخر لم يفته بل أسرع يعرض عليه أن يبقيها.

ـ خليها مع البنات تتسلى اليوم.. وأنت قضي حوايجك وتعالَ.

ـ بس أنا ما أريد أكلف عليكم... قالها الرجل.. وحديثه الخجل يوضح فعلاً أنه لا يود الإثقال على العم رجب... رغم أنه كان يعرف تماماً أنها سوف ترتاح لمكوثها في مكان آمن بعيداً عن الإرهاق الذي سيعانيه.

ـ يا راجل استغفر الله كلفة إيه.. هادي أخت لبناتي....

عندها بدا الامتنان واضحاً على وجه الرجل وهو يصافح العم رجب ويشير لابنته ما معناه.. أن بأمكانها العودة إلى حيث كانت في دار العم رجب.

عادت الفتاة فرحة لتصادف وجهين فرحين.. مرحبين في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

انتظارها وقبل أن يستقر بها المكان كانت صالحة تذكر شيئاً مهماً وتدعو والدها لتفضي إليه به..

ـ يا أبويا يخليك.. ما سألت عن اسم الضيفة..

ـ والله صحيح.. خليني ألحقه قبل ما يروح..

ولحق بوالد الفتاة.. الذي اتجه إلى الونيت استعداداً للتحرك.

ـ يا ولدي أنت ما قلت لي.. اسم المحروسة إيه؟..

ـ اسمها «مستورة» يا عمي.. واسمي «رده».

ـ الله يطرح لك البركة إن شاء الله.. ويشفى لك عنها..

ـ آمين آمين من تمك لباب السماء.. هيا السلام عليكم.. ومشكور،ما تقصر.

ـ في حفظ الله.

بهذه الكلمات ودع «رده» العم رجب وترك ابنته.. ولم يكن يعرف أي مصير ينتظره وينتظرها.. ذلك إنها استطابت الإقامة عند العم رجب.. وبدأت حياة جديدة.. بعد أن شرح والدها لهم مشكلتها.. ورغبته في علاجها بعد أن فشل العلاج في البادية.. ورحب العم رجب ببقائها معهم ووعد ببذل الجهد في سبيل علاجها..

وبدأت «مستورة» حياتها في المنزل سعيدة بعائلتها الجديدة.. وأقبلت على التجربة الجديدة بشجاعة بالغة.. وحاولت أن تتعلم وأن تساهم في كل شؤون المنزل.. كانت تحس أن الله قد استجاب لدعوات أمها.. ودعواتها لنفسها وأنه قد رحم ضعفها.. فمنحها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه الفرصة لتبدأ أملاً جديداً.. ولكي يستحيل ذلك البصيص من النور إلى شعاع يغمر دروب مستقبلها.

وحاول العم رجب أن يساعدها، وأخذ يعرضها على الأطباء دون أن ييأس أو يفقد الأمل وأحس بسعادة تغمره وهو يقف إلى جانبها.. وفرح بوقوف البنات معها.. وأحست «مستورة» بحرارة العواطف من حولها.. وأسعدها هذا الدفق المتواصل من الحنان والحب، وتلك المشاعر التي كانت تحيط بها، مما ساعدها على نسيان محنتها والأمل في الشفاء..

وراحت تصارع خضم اليأس بدفعات الأمل الجديدة..

* * *

حاول العم رجب جهده.. وأحست «مستورة» به يقف إلى جانبها.. وأخفق الطب،وأدركت الحقيقة، وأخذ اليأس يتسرب إلى نفسها من جديد.. ولكنها لم تبال هذه المرة فقد ساعدها هذا الحنان على تقبل الصدمة.. وجعلها تحس بقدرة على الحياة.. بهذا الزخم من العواطف، وهذا الدفق من الرعاية والحرية في هذا المنزل.. وهذا الرجل الطيب الذي يقف إلى جانبها.. ويضحي من أجلها.. يسعد لسعادتها ويتألم لألمها.. كانت تحس به بجوارها يخفف عنها الآلام.. ويمنحها القدرة على الصبر.. ويضيء لها الطريق كلما أظلمت الدنيا في وجهها..

وتعلقت به.. وأحبته.. وأصبح كل شيء في حياتها.. وكانت تكره مجرد التفكير في العودة إلى «الديرة» حيث أهلها،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد ملأ عليها هذا الرجل كل حياتها،وأخذ بيدها نحو حياة ملؤها الأمن والتفاؤل،وحتى عندما أخفق الطب كان وقوفه بجانبها وتلهفه على شفائها أقوى من الإخفاق،ولذلك ضاع ألم الفشل وقسوة الحزن في غمرة الراحة النفسية التي أحست بها.. أو لعله (الحب) الذي كانت تشعر به.. وسرت رعشة عجيبة في جسدها عندما وصلت إلى هذه المرحلة من التفكير.. وأسرعت إلى غرفتها وأغمضت عينيها.. وحاولت أن تنام على هذا الحلم الجميل.. أنها فعلاً تحبه.

* * *

وتزوجت صالحة، ولحقت بها جميلة وعمت الفرحة أرجاء المنزل.. وترددت النداءات:

ـ عقبالك.. عقبالك «يا مستورة» وأشارت برأسها

ـ في حياتكم..

ولكن أحداً لم يكن يعلم بما يدور في نفس مستورة ولم تصرح بحبها لأي إنسان.. وفضلت أن تدفنه في أعماقها.. وتبقى بجوار هذا الإنسان الذي أحبته بكل مشاعرها.. وليس مهماً عندها في أية صورة،إلا أن تبقى.. المهم أن تبقى.. المهم أن تبقى بجواره..

.. ومضت الأيام التالية... بطيئة... متثاقلة... وتحملت «مستورة» أعباء المنزل بمفردها وقد غمرتها السعادة، فقد تحقق لها الحلم الذي كانت تحلم به دائماً وهو أن تبقى بجواره..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تسهر معه وترعى شؤونه.. وترتب ملابسه ولم يكن يزعجها غير ندائه المتكرر:

- يا ابنتي مستورة.. ابنتي مستورة..

كانت تريد أن تصرخ.. وأن تسمع الدنيا لا لست ابنتك.. لا تقل ابنتي إنني حبيبتك.. إنني أحبك.. أحبك،وظل النداء في داخلها يتعالى.. وعواطفها تتأجج والصراع يزداد يوماً بعد يوم حتى ملك عليها كل مشاعرها، وأحست به من الأعماق حباً لا تملك معه حولاً ولا قوة.. حبّاً يملك عليها كل أحاسيسها ومشاعرها.

... إنها تحبه، وهي قادرة على العطاء أليس الحب قدرة على العطاء، وهي راغبة في التضحية أليس الحب نوعاً من التضحية؟

ورفضت كل الذين تقدموا لخطبتها.. وأحس العم رجب.. بغرابة موقفها..

وخشي أن يمضي قطار العمر.. وتبقى هي وحيدة وحاول أن يقنعها ولكن بدون جدوى.

وفكر في احتمال أن تكون مرتبطة بإنسان في «الديرة»،وأقسمت له أنها لا تفكر في أحد هناك.

وظل يحاصرها.. ويرجوها.. أن تفتح صدرها له،وتخبره عن أسباب رفضها المتكرر، ولم تجرؤ على الحديث، وآثرت أن تحتفظ بالسر في أعماقها، فقد كان أكبر من قدرتها على الكلام..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخشي العم رجب أنها لا تريد أن تفارقه وتتركه وحده.. وصارحها بالحقيقة:

ـ هل تخشين الابتعاد عني؟

وكأنما فتح لها باب السماء.. فصرخت دفعة واحدة:

ـ نعم.. نعم.. لا أريد أن أتركك.

ـ إذاً.. لا بأس.. سنشترط على العريس أن يسكن معنا

ـ لا.. لا لا أريد عريساً

.. ماذا تريدين إذاً؟

ـ أريد أن أبقى معك.. معك أنت.

ـ أجل ستبقين معي.

ـ معك وحدك..

ـ لم أفهم.

ـ إنني أحبك.

ـ وأنا أحبك يا ابنتي.

ـ أنا أريد أن أتزوجك وأن أبقى بجوارك.

ـ أ..... وانخرطت في بكاء عميق.

وارتمت على صدره.. وضمها إليه..

ـ لا يا ابنتي يا «مستورة» لا تبكي ولا تنزعجي.. أنت تخلطين بين حبك لي، كإنسان رعاك ووقف معك في محنتك. وكان لك بمنزلة الأب.. وبين حبك لرجل يملأ عليك حياتك ويقف معك في مشوارك القادم.

أعني رجلاً يكون لك زوجاً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لا . . إنني لا أخلط . . والـذي يحب لا يخلط . . إنني أحبك . .

ـ ربما لأنك تشعرين بالأمان معي .

ـ نعم . . وأشعر بالحب أيضاً .

ـ إنني يا ابنتي . . أتمنى لك السعـادة مثل . . صـالحة . . ومثل . .

ـ لا . . لا تقل ابنتي . . أنت حبيبي .

ـ إذاً أنت تصرين على هذا .

ـ بل أشعر بأنه أمل حياتي .

ـ إذاً سوف أطلب المأذون .

وسمعت طرقات على الباب واستيقظت مستورة من نومهـا وصوت عم رجب . . يناديها .

ـ مستورة . . مستورة . . هيا هيا يا بنتي . . وفتحت الباب وكان «رده» واقفاً . . في الدهليز .

لقد جاء ليأخذها إلى «الديرة» .

محمد عبده يماني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أرملتان

بقلم: محمد عبده يماني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أرملتان

أخذت شمس العصرية تتجه رويداً.. نحو المغيب.. وبدأت تخف حرارة الجو في الخارج.. حيث اعتادت «أم هاشم» الجلوس يومياً في مثل هذا الوقت تحتسي فنجان الشاهي.. وسمعت «صالحة» صوت العم تحسين ينادي من أسفل الدرج..

ـ دستور يا هو.. طريق.. وسعوا.. خلو السقا يرش.

وقد تعود العم تحسين أن يقوم برش الماء في الخارج ليساعد على تلطيف الجو.. وجاء صوت أم علي من البيت..

ـ خلاص يا تحسين.. فرغ القربة في «الأزيار» تحت الدرج.. وروح،اليوم جيت متأخر.

ـ طيب.. سامحيني يا عمتي (البازان) مشغول..

هكذا تعود عم تحسين.. أن يمر في الطرقات وهو منحني الظهر وقربته على ظهره.. يجلب الماء لزبائنه في الحارة لكن هذا الزقاق على وجه الخصوص.. وهذا المنزل كان وما زال يعني الشيء الكثير له.. و«أم هاشم» التي كانت صغيرة.. تلهو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الزقاق كفراشة جميلة.. كان يحملها على كتفه،يوم كان عبداً في المنزل،اشتراه والدها من «الدكة»،وعاش أجمل سِنيّ حياته مع هذه الأسرة الكريمة،وحتى بعد أن أعتقه الشيخ هاشم.. وأصبح حراً طليقاً ظل يعيش في المنزل نفسه،يعمل في سقاية الماء في النهار.. ويأوي إليه في المساء،لينام تحت «بيت الدرج».. في نفس المكان منذ ثلاثين عاماً.. ومضت السنون سريعاً.. وبقيت كاملة وحيدة مع ابنتها بعد أن طلقها زوجها وعادت إلى المنزل لتعيش معها.. وقد أصرت على أن تبقى بلا زواج رغم كثرة الخاطبين.. وزحمة المتقدمين لها وبخاصة عندما كان والدها رحمه الله حياً، فقد كانت التجربة التي مرت بها قاسية آلمتها وتركت في نفسها ندوب الإخفاق وجراح الهزيمة.. وأفقدتها الأمل جزاء زواجها من إنسان قاسي النفس،لا يقيم وزناً للإحساس والمشاعر الرقيقة ولا يكترث بغير نفسه.. وحرصها على نجاح هذا الزواج.. تتمنى أن تبقى على عش الزوجية سليماً فضحت بكل شيء واحتملت الكثير في سبيل ذلك وكرهت أن تعود إلى بيت أهلها،فهي تعرف معنى ذلك في نظر أهل الحارة.. وقد حاولت برغم قسوة الظروف من حولها،وعناد زوجها وإصراره على امتهان كرامتها واستهتاره بالحياة الزوجية.. أن تصمد وأن تصبر ولكن بدون جدوى،فقد كانت الحياة معه جحيماً لا يطاق، وعندما تطور الأمر.. واشتدت معاملته قسوة،وبدأ يضربها ويعتدي عليها جسدياً.. وأحست بعدم القدرة على الصبر.. وفقدت مقاومتها على الصبر.. وبدأت قواها تنهار.. ومما زاد عذابها أنها لم تكن تعرف أسباباً منطقية لتصرفاته ورعونته وقسوته.. وقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أشقاها وأشقى نفسه.. وحول عش الزوجية السعيد إلى شقاء وبلاء لا يطاق،زلزل الكيان السعيد دون أي مبرر.. وفشلت في التفاهم معه.. فقد كانت تصرفاته.. تنبع من نفسية معقدة مظلمة.. ولم يكن يقبل بأي تفاهم معها لمجرد أنها امرأة.. وأدركت أنه إنسان مشوه من الداخل،ورجل لا يفهم معنى الحياة الزوجية.. ولا يحاول أن يفهم.

وحتى الطفلة الصغيرة «صالحة»،كانت تنظر إلى ما حولها في براءة مشوبة بالذهول،وخشيت الأم أن تصدم الطفلة في هذه السن المبكرة،ولذلك آثرت الرحيل.. وتركت المنزل.. وعادت إلى بيت أهلها،وأخفقت كل المحاولات لإعادتها لزوجها،فقد حطم كل رغبة لديها للعودة،وزرع اليأس في نفسها.. ولذلك فقد صممت على أن لا تعود،وأصرت على الفراق.. ولم يتردد زوجها لحظة في استجابة الطلب فقد كان رجلاً بلا قلب،ولا تحكمه قيم ولا أخلاق.. وتنقصه التربية السليمة.. ولا يعرف معنى الحياة الزوجية،ولم تتأثر عندما وصلتها ورقة الطلاق.. وقد كتبها بعبارة مستهجنة.. رخيصة.. «غيرها أحسن منها».. وراح يضحك وهو يسلم الورقة.. «فسخ واحدة.. والبس واحدة».

لم يكن يحس بأي حرج من تصرفاته تلك.. فقد كان يظنها في بلاهة.. معيار الرجولة..

وعاشت «كاملة» على هامش الذكريات الأليمة،بعد أن هزتها الصدمة كثيراً،وزعزعت ثقتها بالناس جميعاً،وبالرجال خاصة. وحتى كرهت الحديث عن كل ما يمت للزواج بصلة.. وآثرت أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعيش من أجل صالحة.. وأملها أن تعينها على حسن الاختيار لعلها تجنبها عثرات الزمان..

* * *

جلست «كاملة» أو «أم هاشم» كما يحلو للناس أن ينادوها.. لأنها شريفة الأصل.. جلست متربعة أمام «نصبة الشاهي» و«البشتختة» وعليها «السموار» وأمامها «الفناجيل» «المسكوني» «والسكرية» ومناشف الشاهي.. وبدا كل شيء لامعاً نظيفاً.. ومرتباً بكل دقة.. ومدت يدها لفحص حرارة «السموار» وأصلحت من وضع «المحرمة» وغطاء رأسها،وبدت سعيدة في جلستها.. وكأنها على كرسي الحكم وبيدها الصولجان،فهذه هي مملكتها الخاصة.

وبدت جميلة رغم فعل السنين.. يلفها وقار ملحوظ بالرغم من تسلل خيوط الشيب إلى جانب الرأس.. ضاحكاً من تحت «المحرمة» البيضاء التي لفت بها شعرها،وزان وجهها «خال» جميل توسط خدها.. لا تزعجه غير تجاعيد بدأت تغزو جوانب الوجه الجميل.. على استحياء.. كل شيء جاهز الآن لشاهي العصرية.. والنصبة معدة.. و«البشتختة» مرتبة و«بنت المنقل» مجهزة و«السموار» يلمع.. وقد بدأ الماء يغلي بداخله و«الفناجيل» «المسكوني» معدة في «التبسي».. وبدأت في احتساء الشاهي وأمامها «صالحة» فقد تعودت على هذه الجلسة لسنوات.. وإذا صوت من «الدهليز» ينادي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ يا هو.. يا أهل البيت.. يا كاملة.. كان صوت شقيقها جميل.

ونهضت صالحة لمقابلة خالها.. وتقدم وسلم على أخته وجلس بجوارها.. وأشار إلى صالحة بطرف خفي حتى تنهض وتغادر المكان فقد كان يرغب في محادثة أخته في موضوع زواج صالحة.. ولذلك فقد أسرعت بالانصراف.. وتردد يبحث عن مدخل للحديث.

ـ ما شاء الله.. تبارك الله يا أختي،«صالحة» كبرت وصارت عروسة..

ـ بسم الله عليك يا أخويا،كأنك ما شفتها غير اليوم..

ـ لا مو قصدي.. لكن ما شاء الله،عيني عليها باردة،صارت ست ولا كل الستات..

ولم تجب كاملة.. لتفحص ما يدور في خلده ولتقرأ أفكاره فقد أحست بشعور الأم،أنه يريد أن يقول شيئاً خاصاً بصالحة..

ـ مالك يا أختي تطالعي في وجهي كده؟

ـ ولا حاجة..

ـ لا لازم عندك شيء تبغي تقوليه..

ـ مين؟ أنا.. وإلا أنت؟..

وأسقط في يده.. ولكنه وجدها فرصة مناسبة للدخول في الموضوع.

ـ والله يا أختي أنا كنت أود أن أحدثك في موضوع زواج صالحة. وقاطعته..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ كل شيء قسمة ونصيب..

ـ أيوه صحيح.. لكن يبدو أن قسمتها قربت..

ـ إيش تقصد؟

ـ أقصد جاء واحد ابن حلال يطلب يدها.

ـ مين هو؟

ـ سالم.. ولد القطان؟

وصمتت ولم تتكلم ولم تعلق بشيء..

ـ مالك يا أختي ليش ما تتكلمي؟

ـ أتكلم أقول إيش..

ـ قولي رأيك..

ـ ما يصلح.. ما يصلح لنا..

ـ ليش؟

ـ كده..

ـ ما يصير بس كده.. هادي بنتك، ولازم ما توقفي في وجه نصيبها.

ـ قلت لك ما يصلح.. الولد ما هو مربى وأخلاقه تعبانة.. وطول عمره مفلوت في الحارة..

ـ يا أختي إيش هادا الكلام.. أنت بتتكلمي عن أيام زمان.. الولد.. اتعلم واتغير.. واتخرج من الجامعة..

ـ إن شاء الله اتخرج من «القلعة»... ما يصلح لي..

وضحك جميل حتى استلقى على ظهره عندما سمع كلمة «القلعة»، فأخته تصر على تعابير أيام زمان يوم كانت المدرسة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العالية في قلعة جبل هندي في مكة، هي أعلى درجة في التعليم..

- والله ضحكتيني يا أختي زمانك «زمان قمري»، الدنيا اتغيرت وصار في جامعات.. أنت فين عايشة؟.

- خليني على قد فهمي.. لكن الولد ما يصلح..

- ليه.. ليه يا أختي؟

- قلت لك يا جميل أنا أعرفه وأعرف أهله.. وأعرف أخلاقه وأعرف تربيته..

- يا أختي الولد متعلم..

- كيف؟ التعليم غير التربية.

- أنت غلطانة.. التعليم هو التربية، وما دام الإنسان متعلم معناه أنه متربي..

- لا.. فرق كبير بين التعليم والتربية..

- يعني قصدك علشان.. أهله.. وأصله وفصله؟

- لا.. لكن لأني عارفة أن أهله ما ربوه وأخلاقه.. أخلاق أولاد الشوارع وأنت تعرف قصدي إيش.

- يا أختي لا تخلي ذكرياتك القديمة تسيطر على تفكيرك وتخليكي تنظري إلى الدنيا بمنظار أسود.

- لازم الإنسان يستفيد من تجاربه..

- لكن هذا الولد يختلف عن أبو صالح.. هذا ولد فقير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومكافح وأبو صالح كان غني ومستهتر وبطران.

ـ الأخلاق ما لها علاقة بالفقر والغنى.. القضية قضية تربية ووسط وبيئة يعيش فيها الإنسان.. وزي ما نقول «العود من أول زرقته».

ـ يعني التعليم ما له فائدة..

ـ لا يا أخويا.. أنت فاهم غلط.. أنا ما أقول أن التعليم ما له فائدة لكن تعليم بدون أخلاق وبدون تربية.. زي الزهور بدون ريحة أو بريحة فاسدة..

ـ يا أختي المدارس.. تعلم الناس وتربيهم.

ـ المدارس ما تربي.. التربية تكون أولاً في البيت.. ويا ويل الناس اللي يهملوا تربية أولادهم ويظنوا أن المدرسة تربيهم.. يد وحدة لوحدها ما تصفق..

ـ يا أختي أنت مقتنعة بأمور وتقاليد ومفاهيم قديمة.. وتنظرين للحياة من خلالها..

ـ يعني إيه قصدك؟

ـ يعني مثلاً أنتي مصرة على حكاية «أم هاشم» مع إنك ما عندك ولد.. وكان الأولى تقولي «أم صالحة» وتعتزي بها.. وكمان دائماً تقولي على نفسك أرملة،مع إنه أبو صالحة عايش.

ـ أولاً حكاية «أم هاشم» لعلمك أنا أحب أن أكون تحت ظل اسم راجل والله يعلم قدايش أحب صالحة بنتي.. لكن أفضل أعيش.. وأسمع الناس تناديني «أم هاشم»،وكنت أتمنى يكون لي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولد.. وأحيي ذكرى أبويا الله يرحمه.. أما حكاية أرملة فأنا أعتقد زواجي ولد ميتاً وأبو صالحة كان ميت وهو حي وأنا ترملت من أول شهر في زواجي.

- على أي حال.. أنا أبغي مصلحة البنت وأرجوك فكري في الموضوع.

- المسألة ما تحتاج تفكير.

وصمتت «كاملة» وصمت أخوها وعم المكان سكون رهيب وأحس «جميل» وكأنه أسرف في الحديث.. وشعر بتأنيب الضمير.. وخشى أن يكون قد أثار كوامن الماضي.. وأعاد في ذهنها مأساتها مع زوجها وأحسن بضرورة مصارحتها بموضوع «صالحة» لأنه يريدها أن تتزوج.

لا يشارك أخته مخاوفها.. فالشاب متعلم ومتخرج من الجامعة وصالحة نفسها تريده زوجاً.. وهذا يكفي ولا مبرر لخوف أخته من تربيته وأخلاقه، فتلك حال الشباب من أترابه.. الذين تحسنت أخلاقهم ورقت طباعهم بعد الزواج.. وأحس بشيء يدفعه إلى وضع حد للموضوع.. وكأنه يريد أن يجهز عليها.. وينهي الحوار لصالحه..

وجاء صوته منخفضاً وكأنه يهمس في أذنها..

- طيب ليش ما تسألي صاحبة الشأن؟

- اسألها أنت..

- وصمت جميل.. ومد يده بالفنجان الفارغ.. وهو ينظر إلى أخته في ابتسامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد لاحظ أن صالحة تقف في «المبيت» تتصنت إلى الحديث.. وكان يعرف رأيها مسبقاً..

وقفت «صالحة» مع خالها.. واستطاعا إقناع والدتها بالأمر.. وتم الزواج وعاش الجيمع في سعادة غامرة أيام الزفاف.. وقضيا شهر عسل جميلاً، وسافر جميل كعادته إلى الهند لبعض شئون تجارته حيث تعود أن يبقى عدة شهور فيها.. وبقيت «كاملة» في المنزل وحيدة.. لا يؤنسها غير صوت العم تحسين وهو ينادي:

ـ دستور.. دستور طريق..

ومضت الأيام سريعة وعاد جميل.. وهرع إلى «الدهليز» حتى رأى العم تحسين كعادته يفرغ الماء من القربة في الأزيار «تحت الدرج وحاول الدخول ولكنه توقف.. فقد سمع أصواتاً على الدرج.. والتفت نحو «دادى تحسين» يستوضحه الأمر وأطرق تحسين برأسه إلى الأرض.. وجاء صوت «أم هاشم» مدوياً يا دادى تحسين.. قول لعمك جميل يتفضل أنا شفته من «الروشان».

ـ خليه يدخل ما في أحد غريب.. عند «صالحة»

وهمس جميل في أذن العم تحسين..

ـ صالحة.. جات تزور أمها..

وقال العم تحسين.. وهو يفرغ القربة..

ـ لا.. لا.. عندنا من زمان.. رجعت لبيت أمها.

وتمنى.. أنه لم يسمع الخبر.. ولم يعرف الحكاية.. ولم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتكلم.. وأخذ يصعد السلالم ببطء شديد.. وهزيمة قوية تعتصره وكابوس ثقيل يطبق على أنفاسه ويكاد يخنقه.. ووصل إلى بسطة الدرج واستقبلته صالحة.. حزينة محطمة.. وبقايا دموع تحاول أن تخفيها.. وأدرك الحقيقة المرة.. لقد أصبح في البيت أرملتان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرسالة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرسالة

سرت قشعريرة في كياني ملكت على جوارحي،وتجلى الارتباك علي وأنا أحاول كبت أحاسيسي لأكون طبيعياً بكل طاقتي عندما أعدت سماعة الهاتف إلى مكانها ورجعت إلى مقعدي في صالة الجلوس. . نظرت إلى «أمينة» التي لاحظت الطريقة التي أعدت بها «السماعة» إلى مكانها برغم ما بذلت من جهد لأكتم هواجس النفس وثورة الخاطر. .

ولملمت أمينة أطراف «روب النوم» حولها وقالت وهي تتثاءب:

ـ خيراً إن شاء الله!! ماذا يريد «عصام» في هذه الساعة المتأخرة؟

أجبت في اقتضاب واضح.

ـ خير إن شاء الله. . كان يتحدث عن الوالد واعتدلت في جلستها. . وبدأ الخوف واضحاً على محياها.

ـ ما له. . يا ربي اسمعنا خيراً!!

ـ خير إن شاء الله لا تنزعجي.

ـ ماذا قال لك؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لم يقل شيئاً له أهمية.. أخبرني بأنه في طريقه إلينا، بعد أن اتصلوا به من «جدة»، وسيحضر ونعرف جلية الأمر.. إنه استأذن في الحضور.

صمتت «أمينة» وأخذت تنظر إلى وجهي في بلاهة.. وقد هالتها ملامح الهدوء والسكينة على ملامحي.. فتركت المكان نحو غرفة النوم.. وقالت بأنها سوف تبدل ملابسها لمقابلة أخي عصام..

وأصبحت وحيداً في الغرفة.. وهاجمني شعور عميق بالرهبة.. وسرى في جسدي تيار خوف عجيب.. وبلا وعي ارتميت على أقرب كرسي مفكراً فيما يحمل عصام من أخبار!!

لا بد أن (عصام) سوف يحدثني عن موضوع الرسالة التي أرسلتها لوالدي... إنه اتصل به وأخبره بمضمونها!!!.

وتساءلت في حيرة علام يحضر في هذا الوقت!!.. ولمَ لمْ ينتظر حتى الصباح..

بدأت الهواجس والأفكار تتصارع في ذهني.. هل اتصل والدي به؟ وأمره أن يحدثني عن غضبه من وقع رسالتي عليه.. هل قرر أن يترك المنزل في جدة بسبب رسالتي؟!! يا إلهي لم تسرعت؟! لماذا بعثت له بالرسالة الملعونة... ليتني تريثت قليلاً.. ليتني لم أتسرع بإرسالها..!! أيأتي عصام في هذه الساعة ليخبرني بأن أبي غاضب من رسالتي إليه؟

وعندما وصلت إلى هذه المرحلة من التفكير.. شعرت بالقشعريرة تسري في أوصالي من جديد.. فقد أحسست بأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأمر أخطر مما تصورت.. ولا بد أنه حصل للوالد مكروه فاتصلوا «بعصام» ولم يتصلوا بي لمعرفتهم بشدة تأثري وعظيم ارتباكي.. واتجهت نحو النافذة وفتحتها وأخذت أتطلع إلى الشارع العام المقفر إلا من همسات الليل.. فلم أر أثراً لضوء سيارة.. وكان الشارع يفيض بالوحشة والسكون، فأقفلت النافذة وعدت إلى مكاني.. وبلا وعي أخذت يدي تتحرك قلقاً.. ورجلي تتأرجح عصبية وخوفاً، وكاد رأسي ينفجر من شدة التأثر وعمق التفكير...

وسمعت صوت سيارة تقف في الخارج وأسرعت.. لأفتح الباب.. وهالني منظر عصام فقد كان شاحب الوجه.. بادي الحزن.. وسلم علي ودفعني إلى الداخل.. وكأنه يستعجل الحديث معي:

ـ خيراً إن شاء الله

ـ خيراً يا «هشام» لقد اتصل بي الأهل من جدة وأخبروني أن الوالد مريض جداً.. وطلبوا.. ولم أدعه يكمل عبارته فصمت باستغراب:

ـ مريض جداً منذ متى..

ـ لا أدري.. ويبدو أن الأمر حدث بصورة فجائية..

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني موضوع مرضه.

ـ هل أنت واثق أنه مجرد مرض.

ـ لا.. لست واثقاً.

وظهر عليه ارتباك شديد.. ثم ارتمى في أحضاني...!! وراح يبكي بمرارة وحدة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أخشى يا «هشام» أن يكون قد حصل للوالد مكروه.

ـ لا.. لا.. لا تقلق ربنا لطيف.. ربنا كريم وهدأت من روعه.. ورحت أفكر من جديد في الرسالة.. لا بد أن الرسالة سبب مرضه المفاجيء.. كان إرسالها تجن وقسوة.. ليتني لم أفعل ذلك!!.

دخلت «أمينة» ورأت «عصام» مستنداً على كتفي حزيناً. وذهلت للمنظر وبلا شعور صاحت:

ـ ماذا؟.. هل حدث شيء لعمي؟! لم تطاوعها الألفاظ...

ـ لا.. صلي على النبي.. الوالد مريض ولا بد أن نذهب لرؤيته..

ـ اللهم اجعله خيراً..

ورن جرس الهاتف وخيّم على المكان صمت مطبق مرير.. وكرهت توالي رنين الهاتف ممزقاً صمت المكان، وما جرؤ أحد منا على رفع السماعة.. وتبادلنا النظرات.. وبدا وكأننا نحس بالمجهول وكرهر أن أجيب.. ونظرت «أمينة» إليّ وإلى عصام.. فقد تجمدت.. إنها لا تستطيع حراكاً.. وكان في عينها رجاء عميق وفي نظراتها أمل حزين..

وأفقت من ذهولي.. وحملت السماعة.. وكان المتكلم خالي «جميل» الذي تحدث بحزن وألم،وعرفت أن الوالد قد انتقل إلى رحمة الله قبل أن يقول شيئاً،ولم أتمالك نفسي وتهاويت على المقعد وانهارت الدموع من عيني غزيرة.. إنه بكاء صامت/دفين، أحاول فيه أن أخفي حزني.. وأكتم ألمي الحزين.. وأجالد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شعوري الباكي،فقد تيقنت بأن رسالتي قتلت أبي،وقضت عليه.. وتعالى صوت «خالي».

ـ شد حيلك أنت أكبر أخواتك.

ـ كن رجلاً يا ولدي.. كلنا لها ولن تموت نفس قبل أن تستكمل أجلها.. وخرجت الكلمات متقطعة من فمي..

ـ صحيح.. صحيح يا خالي.. جزاك الله خيراً..

وسوف نحضر في أقرب رحلة في الصباح،ووضعت السماعة ولم أكن بحاجة لشرح الموقف.. وأسرعت إلى غرفتي وارتميت على وجهي في الفراش.. وانخرطت في بكاء ونحيب مسموع.. فقد كان الحزن يمزق قلبي ويفتت مشاعري ويحرق نفسي..

أنا الذي آلمت أبي.. وجنيت عليه وعلى إخوتي.. الصغار بتلك الرسالة الملعونة،وأخطأت من حيث ظننت نفسي مصيباً وآلمت الرجل الذي أحبني.. وضحى بالكثير من أجلي..

وأثبت أنني ناكر الجميل.. وقابلت إحسانه بالإساءة،وعطفه بالتمرد،وحنانه بالقسوة.. كان رحمه الله يحبني كثيراً،ويدللني كثيراً لأنني ابنه الأكبر.. وكان يسمع مني ويناقشني في الأمور.. ويحاورني في القضايا.. وكان صارماً مع بقية إخوتي.. ورعاني بجدية.. وشجعني بابتسامه.. فكنت قادراً على الحديث معه منذ صغري.. وكنت أعارضه في بعض آرائه فيبتسم في حنان.. ولا يغضب.وبعد أن تخرجت من الجامعة وعملت طوال هذه الأعوام الثمانية حتى وصلت إلى مركزي الحالي في الوزارة.. وحرصت على الاتصال به والاستماع إليه،وشددت الصلات بيني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبينه كيلا يظن أني أتكلم معه كوزير.. وإنما أتحدث إليه ابناً أحس به وأحترمه وألبي طلباته،بل زادت عنايتي به وحدبي عليه وتقديري لأبوته كيلا أوذي شعوره أو أسبب له أي إزعاج.. فقد كان يهمني رضاه.. وتسعدني سعادته فهو أبي وكل شيء في حياتي.. ومنه أستمد القدرة على العطاء. وكان دعاؤه يرن في أذني دائماً.. كلما خرجت.. وكلما ودعته ـ ربي يوفقك.. ويكرمك،فأحس بالطاقة أستمدها منه.. والعطاء والخير والرضا تسري في روحي من بريق عينه وابتسامته الحلوة.

ما أتعسني الساعة.. فقد تسرعت في إرسال الرسالة.. لماذا لم أنتظر حتى ألقاه وأحدثه؟..! وأن أبثه الشكوى برقة ولطف؟ ويكون عتابي بيسر وسهولة؟!

وأخذت أردد في حسرة وألم.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. تباً لها من فكرة،ليتني لم أوافق إخوتي، وليتني لم أوقع عليها وحدي.. ليتني لم أبعث الرسالة.

كان رحمه الله يهتم بسعادتنا جميعاً.. وبراحتنا كلنا.. ولكنه وفي الفترة الأخيرة كان ينفق علينا بسخاء وصل حد الإسراف..

ولا نستطيع أن نقول شيئاً.. أو نصده،فقد كنا نعرف ردة الفعل في نفسه،فهو لا يقبل تدخلاً في شئونه من أي إنسان.. حتى أقرب الناس إليه.. لم يعد يتقبل معارضتي بالبساطة نفسها، وكان يعاتبني دائماً ويعنف في العتاب ويشتد في اللوم..

ـ أبدا خدامك يا أبويا خدامك.. وكلنا خدامينك..

ـ لا.. يعني.. ربما تظن أوامرك في الحكومة تمشي علينا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هنا.. ويبتسم دائماً وهو يقول..

ـ هنالك حكومتكم.. وهنا حكومتي أنا في البيت..

ـ أبداً خدامك يا أبويا في حكومة البيت وفي الحكومة الحقيقية.. ويضمني وهو يقول هازلا برقة محببة وحنان عذب:

ـ يعني إيه حقيقية يا ولد؟. يعني حكومتنا هنا في البيت «فالصو» مزيفة وإلا إيه؟؟

ويضمني إلى صدره مرة أخرى في حنان دافىء عميق.. أنسى في غمرته همومي كلها.. ولكنه مع كل هذا لم يعد يقبل تداخلاتي وآرائي..

ولهذا قررت أن أشرح له في الرسالة ما يعتلج في الصدور،وما تهمس به نفوسنا بعد أن شاورت أمي وإخوتي في الأمر فوافقوا بإخلاص وحماسة فقد تكاثر حوله المنتفعون والمحتالون وأوغلوا في الاحتيال عليه... وخشيت من الإفلاس.. وكرهت هذا الإنفاق غير المنظم الذي لا مبرر له... وزاد الأمر حدة عندما بدأ والدي يبيع بعض أملاكنا دون استشارتنا،وجهلنا أسباب هذه التصرفات،ولكننا متفقون جميعاً على خطورتها.فقررنا أن أكتب له الرسالة وأوضح له خطورة الأمر وأبعاده.. لأني الابن الأكبر وكنت واضحاً فيها وعاتباً عليه وربما قاسياً.. لا.. لا.. لقد كنت قاسياً دون شك.

وبعثتها مع صديق قديم لي.. ورجوته أن يسلمها له في الليلة نفسها وليتني لم أستعجله فقد صدمته الرسالة وقضت عليه.. لأنها جاءت مني.. من (معالي الوزير) الذي حذرني من مجرد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاعتراض،فإذا به يفاجأ بتدخل سافر ومباشر في شئون (حكومته الداخلية)،ولا بد أن الصدمة كانت كبيرة فقضت عليه..

وشعرت أني أحمل هموم الدنيا فوق كاهلي.. وبكيت كما لم أبك من قبل،وتألمت كثيراً وحزنت كثيراً.. وكرهت أن يموت أبي وهو غير راض عني، فرددت بحسرة ممضة: حسبي الله ونعم الوكيل.. اللهم.. اللهم اغفر لي خطيئتي وإسرافي على نفسي.. وظلمي لأبي..

ومضت أيام العزاء بطيئة الخطى ثقيلة الوقع.. وعندما تقع النظرات على إخوتي.. أشعر بالاتهام القاتل في عيونهم وكأنهم نسوا أنهم دفعوني لذلك.. وشاركوني في فعلتي، وحملوني وحدي وزر الخطيئة وأمي تعلم ذلك.. ولا بد أن تنصفني لا محالة من هذا الاتهام!

ذهبت إليها في غرفتها.. فارتميت في أحضانها وأخذت أبكي وهي تبكي وتربت على كتفي كالطفل الصغير..

وكلما اقتربت بشفتيها لتقبل رأسي انحدرت الدموع سخية على شعري فتمر بيدها.. لتمسحها..

وأولادي الصغار يبكون بجانبي ومعهم زوجتي «أمينة» وتكلمت أمي فقالت:

ـ أحمدوا ربكم.. إنه مات وهو راض عنكم.. لقد سمعته يدعو لكم قبل وفاته بلحظات.. وأنت يا «هاشم» لقد كان يدعو لك حتى اللحظات الأخيرة عندما تسلم رسالتك.. وقفز قلبي من مكانه:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ تقولين رسالتي يا أمي؟!

ـ نعم رسالتك.. فقد قال لي:

ـ تصوري «يا صالحة» أن «هاشم» أرسل لي رسالة بمجرد سفره إلى الرياض.. فقد ظن بأنني كنت غاضباً من مناقشته لي قبل سفره.

ردد مرات عديدة:

الله يرضى عليك يا «هاشم» وعلى إخوتك وأخواتك جميعاً..

ـ ولكن الرسالة.. لم تكن..

وصمت ولم أكمل.. فقد مدت الوالدة يدها وأخرجت الرسالة من تحت «المسند».

وأعطتني إياها وكانت مغلقة تماماً كما بعثتها.

ـ خذ رسالتك يا بني.. فقد مات قبل أن يقرأها لأن صديقك أحضرها في وقت متأخر وكانت نظارات أبيك رحمه الله أسفل المقعد.. وإحنا في السطوح.. وبعد ما طلع من أسفل.. قال يخليها في الصباح ليقرأها.

ومات يا ولدي قبل أن يقرأها..

وارتميت في أحضانها من جديد.. وكنت الذي يبللها بالدموع.

وأخذت أنظر إلى أخوتي.. وكانت نظراتهم تقول:

براءة... براءة... براءة

وأخذ صدى البراءة يرن في أذني حلواً عذباً خلاباً.. ورحت في نوم عميق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفهـــرس

امرأة في الظلال ٥
وداعاً للأحزان ٥١
شيء من الحب ٥٩
أرملتان ٧٥
الرسالة ٨٩

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com